الفصل الثامن
التذوق منهج محمود شاكر

إذا كان لا حكم على مثقف إلا عن طريق منهجه فى كتاباته . باعتبار أن هذا المنهج هو الركيزة الأولى التى تنير للناقد أسلوب وإنتاج ما ينقده فإن هذا المنهج نفسه ، غير مهم البتة لمن يكتب السيرة الأدبية لنفس هذا الكاتب . إلا أن عكس هذه النظرة هو ما ينطبق على محمود شاكر .. ذلك أن منهجه التذوقى ويعنى به معايشة النص قبل الحكم عليه حيث يدرس الأدب العربى كأعمال لغوية فنية تتلألأ فى نفس أصحابه على صفحاته ، كما يضئ اللؤلؤ بين آلاف الأصداف الفارغة . مناقضة تماما للمناهج التى تعم الساحة الأدبية قبله ، كمنهج أستاذه الدكتور طه حسين «تاريخ الأدب» الذى يدرس الأدب العربى ، وكأنه تاريخ محض مضى زمنه . فصار كالأصداف الفارغة .

وتناقض هذا المنهج مع ما قبله .. كما عرفنا من البحث وراء محاولته مفارقة الحياة يؤكد كيف قاد البحث عنه كل حياة محمود شاكر من يوم وعى لوجوده فى الوسط الأدبى .. بدليل أنه كتبه فى هيئة رسالة وكلنا نعرف ما تحمله هذه الصيغة من طابع شخصى يقرب من الترجمة

الذاتية .. حيث ذكر كيف محى من ذاكرته كل المذاهب الفاسدة من حوله .. محيلا إياها إلى صفحة بيضاء يسجل عليها رحلته كمستكشف يرتاد رحلة مجهده إلى ينابيع وكنوز إرث أجداده العرب القدماء .

ولأنه كان يشعر فى الوقت نفسه أنه يعبر طريق رحلته حتى يسير فيه من بعده - فقد وضع اللافتات الإرشادية والمنارات كما اعترت الرحلة الصعاب فى هيئة يوميات أو أوليات الشعر عامة والشعر الجاهلى خاصة ، والأدب بجميع فروعه والتاريخ وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفات بمذاهبها المتضارية ولم يترك حتى العلوم البحتة كالحساب والجبر وما إليهما أى كل ماهو صادر عن الإنسان أبان عن نفسه - حتى يكتسب سليقة اللغة التى تمكنه من فهم إرث أجداده .

ينبئنا تاريخ حياة شاكر ، أنه كانت هناك ارهاصات أو محاولات سابقة للبحث عن هذا المنهج ولكنها كانت معرضة ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى لأن تكون محض زيادة فى ثقافته .. لولا حادثته الشهيرة مع د. طه حسين اذ رده صدى معاناته منها إلى العودة لمواصلة رحلته إليه ومن ثم تأصيله ، فهل نقول تبا لهذه الحادثة التى عرضته يوما لمفارقة الحياة وأخرى لفقد بصره أم نقول لكل مصيبة سلواها حيث إن أول كتاب صدر بهدى هذا المنهج وهو المتنبى قد حمل له السعادة بعد طول حرمانه منها بل إن هذا المنهج كان ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى .

وظل محمود شاكر مدة الأربعين عاما التالية لتأليفه لهذا الكتاب يطبق منهجه هذا تطبيقا بينا فى كل ما كتبه .. فى مقالاته التى نشرها فى الصحف والمجلات قديما وحديثا ، سواء كان ما كتبه بحثا أو نقدا أو تعبيرا عن ذات نفسه فى كل منحى القول والبيان أو تعليقا على أصول الكتب القديمة .

فأنت تجده فى كتابه «أباطيل وأسمار» وكتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وفى قراءته وشرحه لكتاب «طبقات فحول الشعراء» الذى كتب البرنامج أصلا للدفاع عنه وعن منهجه التذوقى فيه ، كما ظهر بجلاء فى قراءته وتعليقه على كتاب «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار وفى مواضع كثيرة ومتفرقة فى قراءاته وتعليقه على كتاب أبى جعفر الطبرى ستة عشر جزءا ؟ فى تفسير القرآن وفى سائر ما كتب الله له أن ينشره من الكتب والقصائد الشعرية لاسيما «القوس العذراء» .

وطوال هذا الزمن أى من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥٩ والأستاذ محمود شاكر يظن أن ما وصل إليه سبقا لم تأت به المجامع قبله ولكنه فوجئ حين طبعت الرسالة الشافية «للإمام الجرجانى» حيث توقف فيها على فصل نفيس جدا، هو أوضح ما قرأه على الأطلاق فى إجراء التذوق على كل كلام، وفى كل علم مسطور .

ورغم أن محمود شاكر علق على هذا الفصل بقوله «وكلام هذا

الإمـام الجليل ، وأن لم يكن صـريحـا كل الصـراحـة فى الدلالة على منهجى إلا أنه أشبه شئ به «لماذا» ؟

لقد دله هذا الفصل حقا على أصالة منهجـه التذوقى وأن جذوره تضرب فى تاريخ أمته منذ عهد علماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم زادت وضوحا عند علماء التابعين .. ثم اتسع الأمر واستعلن عند جلة الفقهاء والمحدثين من بعدهم .

أى أنه لم يبتدع هذا المنهج ابتداعا على غير سابقة : بل كل ما أزعمه أنى بالجهد والتعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الركام من الكلام، جمعت شتات هذا المنهج فى قلبى ، وأصلت لنفسى أصوله ، مع طول التنقيب عنه فى مطاوى العبارات التى سبق بها الأئمة الأعلام من أصحاب هذه اللغة .

ومحمود شاكر قد تكلم عن مذهبه التذوقى هذا بأسهاب ووضوح ليس فى «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا/ فقط بل فصله أكثر فى مقالاته فى رده على الدكتور عبدالعزيز دسوقى التى كانت بعنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته» ثم فى مقدمته لكتاب مالك بن نبى وفى كتابه «أباطيل وأسمار» .. إلا أننا نركز هنا على ما جاء فى الرسالة لأن النقاد تناولوه منها .

فما هى أسباب إفصاحه عن منهجه التذوقى الذى طبقه فى كل ما كتب من سنة ١٩٣٦ ؟ وماهى أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين منهج التذوق عند الجرجانى ؟

يرد محمود شاكر على السؤال الأول بقوله : «وببديهة العقل لم يكن من عملي ، ولا من عمل أى كاتب مبين عن نفسه ، أن يبدأ أول كل شئ فيفيض فى شرح منهجه فى القراءة والكتابة ثم يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس هاهو منهجى ، وها أنا قد طبقته ، هذا سخف مريض غير معقول ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبقا منهجه ، وعلى القارئ ، والناقد أن يستشف المنهج ويتبينه ، محاولا استقصاء وجوهه الظاهرة والخفية ، مما يجده مطبقا فيما كتب الكاتب.

ولكن فساد حياتنا الأدبية ، هو الذى يحيل العقول أحيانا حتى نغفل عن أبسط القواعد البديهية فى العقول الأنسانية .. وكفى بهذا فسادا ووبيلا ، ولكن ألا يحتمل أن الكتاب تبينوه .. ولكن خوفا من الدكتور طه حسين .. لم يشيروا إلى ذلك .. لا سيما وأن الأستاذ فؤاد صروف ألمح إليه . بغير لفظ المنهج .. حتى إننى ولست معاصرة لظهوره استشففته من كلامه حيث قال : «فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أولا فيما قيل عن أصل المتنبى وذهابه إلى الكوفة لزيارة جدته وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة فى الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد ، ثم لما طبقه على نفسية المتنبى فى شعره وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر ، واستقام كذلك فهمها على منوال

يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث «العصر» وهذه النظرية مهدت فى الكشف عن أشياء جديدة فى حياة المتنبى وتاريخ عصره وروحه وصراعاته وانعكاسها على شخصية الشاعر وشعره يحقق كل هذا تحقيقا مفصلا فى سفره المرتقب إن شاء الله .

ولا يسعنى فى هذه السطور أن أفصل القواعد التى بنى عليها الأستاذ شاكر رأيه ، فهى كثيرة مفرقة فى جميع الفصول وهذا البحث الظريف فى حياة المتنبى وأدبه لى إلا وليد تطبيقها

فالذى يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبى ، متدبرا ، تتكشف أمامه معانى جديدة مغايرة فى شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى .. فقد نفض به الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبى كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته فى مدارس الأشراف العلويين فيها، وبين صلة المتنبى بالعلويين من نشأته التعليمية إلى وقت مصرعه وتأثير ذلك فى حياته وشعره وآرائه السياسية ونفى ما أتهم به المتنبى من النبوة مستدلا على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل للسبب المعقول فى تسمية أبى الطيب بالمتنبى» .

وقد درس حياته وهو إلى جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبى وأنهما

كان يعملان معا على تحقيق الأمل السياسى لرد الحكومة إلى العرب ، ونزعها من أيدى الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبين أثر هذه الصلة السياسية فى شعر أبى الطيب الذى قاله فى سيف الدولة .

وكشف فيما أثبته من تاريخ هذه الفترة عن أن أبا الطيب كان يحب خولة أخت سيف الدولة ، ودور هذا الحب وأثره فى سمو شعره وروعة أبياته ولكن الذى حز فى نفس الأستاذ محمود شاكر .. أنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٧٧ ولم يفز بعد كلمة فؤاد صروف من ناقد أو قارئ يكشف فيه عن منهجه المغمور الذى تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة .. فاضطر أن يفصح عنه بنفسه .

أما أوجه الشبه والخلاف فى منهجه عن منهج الجرجانى فأوجه الشبه بينهما هو الجوهر التذوقى.. وأوجه الخلاف أن منهج محمود شاكر ذو شقين شق تذوقى وشق تاريخى.. يمثل البعد بين عصريهما وما حدث فيه من إفساد للمنهج الاصلى اذ ان منهج الجرجانى المتوفى ٤٧٤هـ /١٠٧٦م يدل تاريخه على أنه جاء مغايراً لما لم ينقطع قبله .. أى أيام انصلاح الأحول العربية، وتآلف الدولة العباسية قبل أن يدخلها الفساد عن طريق العجم والخدم، وما بعدهم التتار ثم الحملات الصليبية.. وما أحدثه سقوط القسطنطينية من حقد أوربا على العرب ثم الحملة الفرنسية لاسيما رسالة نابليون لكليبر حتى الأستعمار الأنجليزى.

أما منهج شاكر وبالذات الشق التاريخى ، الذى أعطاه الصبغة الذاتية فقد جمع شتاته فى قلبه بعد ارتطامه بنتائج الأحداث التى تلت منهج الجرجانى حيث تنازل السلاح لمن هو أبشع منه ليقوم باختراق العالم العربى والأسلامى.

وهم طبقة المستشرقين حيث قاموا باستعمار هذه البلاد ثقافيا بعد ذلك سلموا الشعلة لدوجلاس دانلوب ليقوم بتفريغ الوعى القومى من الأرتباط بينابيع وكنوز العربية التليدة.. وبذلك عمت المناهج الفاسدة.. هذا يشك فى الشعر الجاهلى وآخر فى وثالث فى..

أى أن الشق التاريخى.. هو نفسه «الطبقة الترابية التى تكسلت فوق وجه الأدب العربى.. وأرهق محمود شاكر فى إزاحتها، والتى استغرقت العشر سنوات من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٦م وتعلم فيها علما يفوق علم عشرات الأكاديميين.. سيما وقد أجاد مرحلة الثقافة الشفاهية المتطلبة للعربية على يد أستاذه المرصفى حتى اعترف له أخيه وهو شيخ المحدثين فى عهدنا بالأقتدار على العربية ثم رشحه عنه فى تحقيق الستة عشر جزء من تفسير الطبرى كما كتب ذلك فى مقدمته.

نبدأ الآن الكلام عن الشق الأول فى منهج شاكر.. أى شق التذوق. ولأن محمود شاكر له تاريخ طويل مع ماسمى منهجا.. ويدرج جيدا الغموض الذى احاط بهذا اللفظ .. ويعرف ما أدى إليه من خلط كثير فى الأداب وتفسيرها وشرحها وأن هذا اللفظ يزداد مع الزمن غموضا

وابهاما لذلك ينبه: فأعلم أن حديثى هنا هو عن الذى يسمى «المنهج الأدبى» على وجه التحديد أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه، والتاريخ، وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الأنسان إبانة من نفسه وعن جماعته = أى يتنارل ثقافته المتكاملة المنحدرة إليه فى تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة. ووعاء كل ذلك وكله ومستقره هو اللغة واللسان لا غير «ذلك ينوه عن منهجه هو بالذات فيقول: ولفظ «المنهج» يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وأن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن، بل أريد به «ما قبل المنهج» أى الأساس الذى لا يقوم المنهج إلا عليه . فهذا الذى سميته هنا «منهجا ينقسم إلى شطرين: «شطر فى تناول المادة ، وشطر فى معالجة التطبيق.

فشطر المادة يتطلب قبل كل شئ جمعها فى مكانها على وجه الأستيعاب المتيسر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفراداته تمحيصا دقيقا، وذلك بتحليل أجرائها بدقة متناهية، وبمهارة وحذر حتى يتيسر للدارس أن يرى ما هو زيف جليا واضحا وما هو صحيح مستبينا ظاهرا، بلا غفلة، وبلا هوى وبلا تسرع أما شطر التطبيق فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نفى وتمحيص جيدها باستيعاب أيضا لكل احتمال للخطأ او الهوى أو التسرع، ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقة من الحقائق موضعا هو حق موضعها، لأن أخذى اساءة فى

وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليق أن يشوه عمود الصورة تشويها بالغ القبح والبشاعة.

وهو يطلب التدقيق والتنبيه على السطر الفائت بدقة: «إن شطر التطبيق» هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقول، وتتناصى الحجج والذى نسمع فيه صليل الألسنة «جهرة»، أو «خفية» وفى حومته تتصادم الأفكار بالرفق مرة وبالعنف مرة أخرى، وتفترق فيه الدروب والطرق أو تتشابك أو تلتقى ، هذه طبيعة هذا الميدان، وطبيعة النازلية من العلماء والأدباء والمفكرين وعندئذ يمكن أن ينشأ ما يسمى «المناهج» أو «المذاهب» ولا ينسى الأستاذ محمود أن ينبهنا لوقت الحاجة للشطر الأول أيضا بالنسبة للعلوم البحتة ، مثلا إلى ما سميته ما قبل المنهج ، إحتياجا ملزما ، إلا بعد أن تستوفى العلوم البحتة مثلا قدرا صالحا من النمو والإتساع ، حتى يحتاج إلى إعادة النظر للفصل بين تداخل أجزائها بعضها فى بعض لتصحيح مسيرة العلم ، وإعطاء كل علم حقه من الوضوح ، حتى تستقيم بكل نهجه وطريقه ونموه بلا خلط ولا تزييف.

ولأن لهذا الشطر مزالق وغوائل يمكن أن ينحدر إليها الباحث فلا يصل إلى غايته .. فقد اشترط الأستاذ محمود شاكر علي النازل إليه استيعاب مداخل ثلاثة استيعابا تاما .. وهى اللغة والثقافة والبعد عن الأهواء أى الأصل الأخلاقى .

وقد شرح الأستاذ محمود شاكر تداخلها وتراحبها وسمو مضامينها .. من صفحة ٢٤ إلى ١٢٢ في الرسالة .. ومن ومضاتها عن الأولى مثلا : أن بين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالق تزل عليها الأقدام ، ومخاطر يخشي معها أن تنقلب وجوه المعانى مشوهة الخلقة مستنكرة المرآة ، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المستكنة فى هذه الألفاظ والتراكيب .

أما الثقافة : فهى معارف كثيرة لا تحصى ، متنوعة أبلغ التنوع لايكاد يحاط بها ، مطلوبة فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها أولاً عن طريق العقل والقلب ثم للعمل بها حتى تذوب فى بنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به » .

أما الأصل الأخلاقى وهو العامل الحاسم الذى يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام ترابطا بقدر ما يكون فى هذا الأصل الأخلاقى ، من الوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعا سواء فى ذلك النازلون فى ميدان «ماقبل المنهج» أو في ميدان «المنهج نفسه «وهم العلماء والمفكرون والأدباء ، والمتلقون عنهم تلامذة كانوا أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة .

ولأن الأستاذ محمود شاكر رجل أخلاقى فأنه يرى أن هذا الضابط الأخلاقى الرقيب يأتى من قبل «الثقافة » ورأس كان هو الدين ، أو ما

كان فى معنى «الدين» من عقائد أو ملك أو نحل أيا كان نوعها ، أو هو الذى بمعناه العام والذى هو فطرة الإنسان .

ولأن الأستاذ محمود شاكر يعرف أن المثقفين العرب يخرون عندما يسمعون رأى أى غربى فى موضوع كان فإنه فى ربطه للثقافة بالدين – أو أنه ليست هناك ثقافة بدون عقيدة – فقد استشهد برأى ت س إليوت فى هذا المدخل المهم لاسيما قوله : أليس ما نسميه «ثقافة» شعب ما ، ودين هذا الشعب مظهرين مختلفين لشئ واحد ؟ إذا الثقافة فى جوهرها تجسيدا لدين الشعب .

هذه لمحة خاطفة عن شق التذوق من منهج محمود شاكر كما كتبه فى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا وشدد فيه على دقة التذوق وقد سجلنا جزءا منه فى باب «محمود شاكر كما قرأته لاسيما بعد أن شعر أن قوة الوجود كلها قد انسكبت فى روحه» .

المتنبى قدر محمود شاكر

تعاظمت أعمال محمود شاكر وتنوعت - كما مر علينا - ومع ذلك بقى «المتنبى» الذى كتبه فى بواكير عمره ذا ألق مشع يخطف نظر من يتكلم عنه .. حتى لكأنه قدره الذى يهيمن على روحه من أول خطوة نحو الطريق المستقيم ، لقد حفظ ديوانه فى عام واحد ، هو عام رسوبه فى الشهادة الإبتدائية ، وفى اللغة العربية بالذات كما نعرف ، ويقول هو عن تأثير حفظه له : «وكأن عينا دفينة فى أعماق نفسى قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم ، وطفقت أنغام الشعر العربى تتردد فى جوانحى وكأنى لم أجهلها قط» .

وهذا يؤكد أن حفظه لديوان المتنبى قد أيقظ فى نفسه حاسة الشعر تذوقا وإنشادا بعد ذلك .. أى أنه ولد الشاعر فيه . إن كتابته عن صاحب هذا الديوان قد أهدته أسلوبه الفذ فى النثر وهو مازال ابن ستة وعشرين عاما حيث ذكر أنه قبل كتابته له لم يكن قد سطر إلا بعض الأشعار وحقق فصولا من كتب الإرث . لذلك صور لحظات تأهبه لكتابته بقوله «ظللت أميل الرأى بين أساليب الكتابة : أيها أختار وأيها أدع .. لم يكن لى أسلوب خاص . وخفت أن يأكل منى الزمن عزيمتى و .. و .. إلى أن قال : «وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت فى جانب من

الصفحة «أبياتا من شعر المتنبى» ومضيت أكتب كأنى أسطر ما يملى على . لا حيرة ولا بحث عن أسلوب وطريقة ، ولا تردد ، ولا هيبة من شىء ، ولا تحرج عن غرابة ما أقول وما أكتب ، وفرغت من الفصل الأول وهكذا دواليك يوما بعد يوم حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان وتم كل شىء» .

ثم إن منهج محمود شاكر ولب حياته قد طبقه أول ما طبقه وهو يضع عمود الصورة فى حياة المتنبى فى العدد الممتاز من المقتطف عام ١٩٣٦ .

وكان يوم ظهور هذا العدد مفاجــــأة لفتت أنظار الأدباء جميعا فى كل بلد ينطق اللسان العربى ، إلى اسم شـــاب واعد كان يسمى بابن الشيخ محمد شاكر .. فصار من يومئذ اسما مشهوراً أو كاتبا مذكورا فى خفقة كخفقة البرق . أى أنه حمل له السعادة بعد طول حرمان .

وكان محمود شاكر قد انطلق بعد كتاب المتنبى يحتضن العالم ويرتد إلى إنسانيته ، مما يذكرنا بأقوال علماء النفس .. إن الإبداع يكمن فى تجقيق الذات .. لا سيما وقد عرفوا الإبداع بالأصالة ، ويتمثل فى الابتعاد عن النظرة الضيقة للأمور والنظر إليها بطريقة جديدة .. أو بمعنى عدم انصيـــاع محمود شـــاكر لآراء من ســـبقوه قبل إعمال فكره .

أما عندما صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى عام ١٩٧٧ التى

حوت قصته فى إبداعه له ، فقد أثبت لعلماء النفس أن الإلهام وحده غير قادر على تفسير عملية الإبداع ، فهو - أى الإلهام - وإن استطاع أن يفسر لهم لحظات الانسياب والطلاقة ، فسيعجز عن تفسير لحظات المقاومة والاضطراب والمسودات التى قدمها الأستاذ محمود شاكر لفؤاد صروف .. ثم مزقها مرات ومرات والتى صور حاله فيها : ومر نحو أسبوع وأنا لا أجد إلى هدوء نفس منفذا ، وأخذت ديوان أبى الطيب «المتنبى» مرة خامسة ، أقرأ لا أتوقف ولا أمل ولا أهدأ وأنا فى خلال ذلك أراجع كل ما فى تراجم أبى الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرهم تبعا للخواطر التى تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفى فجر الثانى عشر من شهر رمضان صليت ، فلما جئت آوى إلى فراشى طار النوم من عينى .. ومع طيرانه تبدد القتام الذى كان يلفنى ، وذهب التعب وما لقيت من النصب ، وتجلى لى طريق بان كأنى سلكته من قبل مرات فأنا به خبير ، وأخذت الأوراق التى كنت كتبتها فمزقتها وأنا على عجلة من أمرى ، ونبذتها وأعددت أوراقى وجلست على مكتبى وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت .. ومضيت أكتب .. كأنى أسطر ما يملى على لاخيره و .. و ..» .

وقصة الكتاب وإن أثبتت لعلماء النفس أن الاحتشاد غير الإلهام فقد أثبتت أيضا قوة ذاكرة محمود شاكر ، حيث قال لى إنه قد تذكرها بتفاصيلها كما حدثت عام ١٩٣٥ وكتبها عام ١٩٧٧ بفارق اثنين

وأربعين عاما .. فيالها من ذاكرة جعلته أول عربي يكتب عن لحظات إبداعه ليس فى الشعر وإنما فى النثر أيضاً .

وإذا كانت براءة حصول محمود شاكر على جائزة الدولة التقديرية فى مصر قد أعطيت له على مجمل أعماله والمتنبى ضمنها . فإنها تحددت فى براءة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى حيث كان البند الأول لحصوله عليها قد جاء هكذا : «تأليفه كتاب المتنبى سنة ١٩٣٦ م ، والذى حمل كثيرا من القيم العلمية والأدبية العالية ، منها التعمق فى الدراسة والجهد والاستقصاء ، والقدرة على الاستنتاج ، والدقة فى التذوق ، والربط المحكم بين الشعر وأهداف الحياة ، والكشف عن ذلك فى تطور أساليب المتنبى» .

ولولا الإيضاحات من محمود شاكر على منهج طه حسين فى بابه «بينى وبين طه» فى مراجعة عبد العزيز الدسوقى ، لما كان كتاب محمود شاكر «المتنبى ليتنى ما عرفته يأخذ طريقه إلى النشر» .

وهو يصف حالته بعد الانتهاء من المقالة المسهبة عن المتنبى التى صارت عددا ممتازا من المقتطف بقوله : «ولم يكن من نصيبى أن أمسك بيدى أول نسخة منه ، لأن أبا الطيب أراد أن يكافئنى ، فجعل مكافأتى على أثر الفراغ من الكتاب بالحمى التى ركبته فى أواخر أيامه بمصر» .

لذلك كله .. أجد خيالى دائما يصوره لى وكأنه أحد أئمه الإسلام

وفقهائه .. إلا أن خيـالى عن هيئته يتشبث بكونـه شديد الشبه بالمتنبى .

وقد لاحظت - عفوا - وأنا أخط حياته ، أن السنين التى تبدأ بالرقم ٦ لها دلالات سواء فى مراحل عمره ، أو فى كر السنين على أعماله ، مثل وصفه الرائع للكلمة فى نفسه وهو ابن ٦ سنين . دخوله المدارس النظامية سنة ١٦ .. أو دخوله الجامعة سنة ٢٦ ووفاة والدته فى نفس السنة .. وظهور المتنبى سنة ٣٦ ..

وهذا الرجل العجيب أسمى ديوانه فى النسيب والغزل وشكوى الحب «ديوان البغضاء» فهل أتى بهذا العنوان المتخالف ياترى ليؤكد أن الحب والبغض متجاوران كما قيل ؟ أم لأن أول قصيدة فيه كانت «انتظرى بغضى» أم أنه كان كذلك لما عاناه هو فى الحب ؟ أو لأنه كرجل قاموس نظر للحب وكأنه الحية ؟ .

لكى نجلى هذا لابد من تتبع حياة محمود شاكر مرحلة مرحلة . فنجد أنه ارتبط بمربيته السودانية عصبية المزاج وهو طفل ، وفى المراهقة وجدناه منغمسا بالكامل فى تذوق الشعر الجاهلى ، فى الشباب أو فى سن الخامسة والعشرين أى سنة ٣٤ كما قدرنا ، كتب لأستاذه الرافعى يصف حالته التى كادت تودى بحياته هذا التعبير : «وزادنى أنى كنت رجلا عزبا متعففا ، وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ، هذا هو العقل البليد وتلك هى الرجولة البليدة وقد

عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ، وليتنى كنت ذاهلا مغلقا عقله، وكان قلبى مفتوحا لأفراح هذا الكون العظيم . ومضت أيامى يضرب بعضها فى بعض ويمرض بعضها بعضا ، حتى انتهت منتهاها ، وجاء اليوم المدنف الهالك الذى سيموت» .

هذا الحكم . ولا شك جاء نتيجة لمقارنته حياته ، بحياة من حوله من الشباب اللاهى . وكان حكمه لصالحهم ، وربما راوده فى هذا الوقت خاطر التخلى عن مشروعه فى البحث عن المنهج والسير معهم ، فالفراغ الناشب بين هذا وتلك كان فى أشد عنفوانه .. ليس هذا تحليلنا .. لأن الرافعى أردف المقالة التى جاء بها هذا التعبير ، بمقالتين عن الحب ، هذه واحدة .

أما الثانية : أنه عاد للقراءة والكتابة مستعملا قاموس الحب .. كقوله مثلا عن جهده فيهما بأنه كان غراما . إذ لا يعقل أن استعماله لكلمة غرام كانت بمعنى الشر الدائم كقوله تعالى : «إن عذابها كان غراما» لأن لفظة أغرم بالشىء تعنى ولع به .. ونحن عندما نقرؤها عند محمود شاكر نجد لها هذا الظل الأخير ، بدليل أنه قد يستهل مقالاته بمشاهد عاطفية كمقالته «لمن أكتب» .. ١٩٤٧ فهى وإن كانت عن حلمه بأن يوافيه القدر بفارس يجعل ما نادى به موضع التحقيق فإنه بدأها هكذا (بينى وبينها أيام معتقة كأنها الخمر من دنان الزمن ، فإذا ما قدر الله لنا أن نجتمع يوما ، طارت بلبى نشوة ترمى بى إلى عالم

ساكن ناضر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالما صاخبا محترقا لافح الرياح عاصف الأعاصير ، واجتماعنا هو إحدى الأمانى التى يقول مثلها الشاعر :

أمانى من سعدى رواء كأنما

سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتنى بالسؤال لا أتوقعه فيردنى سؤالها إلى نفسى ردا عنيفا لا أملك معه إلا أن أديم طرفى إلى هذا الوجه الذى يخفى نفسا ثائرة ، ولكنها ساكنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات ، ولست أدرى أتلك إحدى لطائف الحيل التى تحب أن توقظنى بها من غفوة الأحلام أم تلك يقظة دائمة فى نفسى لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين يدعوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ وأى ذلك كان فهى قد أخذتنى أخذا شديدا حين استوت فى جلستها وقالت : حدثنى ، لمن تكتب هذا الذى تكتبه ، ثم تأتى المقالة» .

هذا كل ما التقطناه فى نثره عن الحب عنده .. أما نظرته هو فى الحب وما يفعله فى المحب المبدع فقد جاء فى الباب الثالث عشر من كتابه عن المتنبى وحبه لخولة أخت سيف الدولة حيث قال : «ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هى تمام نفس الرجل المحب وتكملتها . كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة إنما هى

دراسة للكون كله . فإن العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلا بعيني من يعشق ، وهي تلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة ، والحب القوى النافذ الذى يتملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر» وكأن محمود شاكر باستشفافه كل ذلك من شعر المتنبى يهمس فى أذننا : التفتوا لشعر المبدع .. لأنه فى فترة قد تسيطر عليه المثاليات .. بينما لا يستطيع أن يقول فى شعره سوى الحقيقة .

إذن فليس بين أيدينا إلا نفثة قديمة موصولة بقصائد «ديوان البغضاء» «انتظرى بغضى» و«حيرة» و«عقوق» سنة ٣٦ ، «ألست التى ..» سنة ٣٣ ، و«اذكرى قلبى» سنة ٤٠ ثم «تحت الليل» و«من تحت الأنقاض» وكانت آخر قصيدة نشرها فى شكوى الحب ، وإن كانت له قصائد مسجلة على أشرطة كاسيت مثل «اعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» ويهيأ لى أنها تنتمى لهذه المرحلة لأن بها قصيدة فيها سخرية الشباب وهى قصيدة «وعد» والتى أنشدها ، متفكها ، فى كلب صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل .

كان محمود شاكر وقت إنشاده لهذه القصائد شابا فى السابعة والعشرين إلى ما قبل الاكتمال بقليل .. أى فى عمر المتنبى تقريبا عندما أحب خولة .. حيث وصف المتنبى فى هذا العمر بقوله : وكان قد بلغ من

العمر أربعة وثلاثين سنة وهى السن التى تستحكم فيها الأصول ، وتستقر المذاهب . ويقف الرجل عنـــدها لا يملك فى تبديل أمره حولا ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصة من كان مثل المتنبى قد عركته الأيام و ..... و ..... وإن محمود شاكر غير المتنبى فى الجملة الأخيرة .. ذلك أن المتنبى قد أحب قبل ذلك بل تزوج .. أما هو فكان غرا فى سنه هذه قليل التجربة .. بل قد تكون أميرته ذات السلطان التى توجه إليها فى هذه القصائد هى أول امرأة أخذها مأخذ الجد فى حياته..

ولأن عام ٣٦ كما قدرنا ، ونحن نقيم حياته ، كان الحد الفاصل بين كينونته التى كانت قبله مجرد تحصيل وإبداع وبين انفتاحه على الحياة سائرا على قدميه كخلق الله ، وأنه كان قبلها محروما إلى حد رهيب من الحب لا من المجد .. وقد حمل إليه المجد بنجاح المتنبى على الصعيد العربى زخات شديدة من الحب لم يحتملها بنيانه النفسى الهش الذى استنزف فى التحصيل والأخذ ، لذا أجهضت تجربة حبه وراحت نثارا ، فاطلق عليها هذا الاسم «ديوان البغضاء» ، لأن سذاجته العاطفية جعلته يحمل ورقة كربون يطبق نظريته في الحب .. فإذا ما حدث أى خلاف .. فلا يكون هذا المعاش حبا .. بل بغضاء .

ونحن لا نستطيع أن نرد قصائد هذا الديوان إلى زمن نفسى معين .. لأنها نبعت من قلب محمود شاكر على فترات بين سنة ٣٦ و سنة ٤٣ .. وهى سنوات تأرجح فيها إنتاجه بين التدفق والانحسار .. مما يدلنا أنه خلالهما تناهبه الصفو والكدر ، والصحو والغمام .. وإن لاحظنا أن

فترات الغمام والكدر أو الليل المخيم قد التهمت الوقت الأعظم من هذه السنوات ، حتى أن أحد تلامذته استهول وهو فى معرض حديثه عن قصيدته «اذكرى قلبى» .. قائلا : فى مجلة الهلال (١) «فما هو هذا الشقاء والعناء الذى أخذ بشاعرنا ؟ وكيف كانت نجاة الشاعر من هذا المصير المخيف ؟ إنها أسئلة ملحة لا يستطيع الإجابة عنها إلا صاحب هذا الشعر ! فهل يوفر علينا الشيخ الجليل ذلك ويحدثنا عن حياته ويفتح لنا صفحته وتجربته ؟

ورغم أن أستاذا كبيرا (٢) فى علم النفس .. قد ضم صوته لهذا السائل بوجوب تلبية الأستاذ شاكر لهذا الرجاء .. فإن هذا النداء معلق مازال فلنستنطقه إذن لا بمنهج شاكر التذوقى ولكن عبر قراءة السيناريو المتأمل فى عناوين قصائد «ديوان البغضاء» حيث قصة حب لم يكتب له فيها النجاح .. كما قصيدته «نفثة قديمة» ، حيث أومأت إلى دفقة حب لا يعرفه إلا طرفاه ، أما قصيدة «انتظرى بغضى» وهى توعده للحبيبة بالبغض إن هى عقت حبه لها . فقد أردفها فى نفس العام بقصيدته «حيرة» وفيها يتساءل عما إذا كانت رصانة الحبيبة .. تدلل .. أم تباعد ، وفى العام نفسه كانت قصيدته «عقوق» إعلانا صريحا عن مفارقة الحبيبة ، التى فضل الحية عليها ، ومطلعها :

---

(١) الدكتور زكريا سعيد علي . مجلة الهلال القاهرية ديسمبر ١٩٩١م

(٢) الدكتور مصطفي سويف . مجلة الهلال القاهرية يناير ١٩٩٢م

هل بنا ، يا فؤاد : ننسى المودا ت ونلـقى إلى العـداوة حبـا

وتعالى يا ربة «الارقش» الخدا ع وارعى ما بين جنبى خصبا

وأوسطها :

هذه كف خائض غمرات الـ حب أبلى فيها بلاء صعبا

ونهايتها :

فألـد الأعـداء مـن علمته محن الحب أن يعق الحبا

وها هو عام ٣٧ يستجمع خيوط قصة الحب من أولها لآخرها لنعرف من كان منهمـا المخطئ حين تسـاءل فى قصيدته «ألست التى ... ؟» .

بلى : كنت فى قلبى سراجا يضيئه فيفتر عن أنـواره كل جـانب

وكنت حيـاة للحيـاة تمـدها بأفراحها فى عابسات المصائب

وتتوارد الأسئلة كنت وكنت ولكن ما إن يتبين له أنه لم يخطئ فى حقها حتى يأتى حكمه :

فإن يك بغضـى كل ذنب جنيته إليك .. فإنى لسـت منـه بتـائب

وكيف .. وقد أنهكتنى وعرقتنى وقدت على قلـبى جيوش النوائب

ذرينـى ولكـن الحيـاة مليئـة بكن فما فى الأرض منجى لهارب

أما قصيدة «رماد» فتنبئنا بعدم تلبية الحبيبة رجاء العودة فكان رجع صدى هذا التعنت منها فى قصيدته «اذكرى قلبى» ، بل ظل ملازما له كلما طواه الليل تحت جناحه كما عبر فى قصيدته «تحت الليل» ، ولكن مرور الوقت جعل العلاقة برمتها «تحت الانقاض» ١٩٤٦

أما تمام مطابقة هذه القصة المتخيلة من شعر المحب فقد تبلور فى قصيدته «الربيع» حيث استهلها بتصوير فعل الربيع فى نفوس المحبين ، وأنهاها بفعل الربيع على حبه ذاته حيث أنشد :

هذا ربيع الناس وأحزنى وربيعى الأشواك فى قلبى
أغضى شبابى فى ملاوته كالشيخ تحت عمائم الشيب
ودلفت بالأيام متئدا حملتها خطبا على خطب
أمشى بأفكار محيرة بالشوق أوانه وبالرعب
هذا شبابى ، سائر أبدا بربيعه فى مقفز جدب
أحيا الشباب ربيع حبهم - نعموا به - وأماتنى حبى

ولا شك أن تصويره حالة ذاته مع الربيع الذى يختلف عن حال أغلب الناس .. ثبت خطاى فى كتابة هذا السيناريو الذى استقيت مفرداته من عناوين قصائده ، رغم أن البعض قد حذرنى من تناولها هكذا ، لأنهم يرون أن قصائد محمود شاكر الغزلية - كما هى غزليات المتصوفة أو مدائح صاحبه المتنبى فى كافور الاخشيدى ، وسيف الدولة الحمدانى - ذات ظاهر لا يقصده وباطن يعنيه بهذا الظاهر .

والذى يؤنسنى أن ما رحت إليه قريب الشبه بالحقيقة ، وأن بارقة انطفاء جذوة الشعر عند محمود شاكر كانت «القوس العذراء» ، التى اعتبرها بعض النقاد إرهاصا لفقدانه الشباب والأمل فى الحب.

أما زواج محمود شاكر فهو الحب كله ، وهو حظه السعيد الذى واتاه بإنسانة نقية تقية دمثة الخلق خبرها عن قرب كل القرب .. وتفهمته

ورعته وتحملته قبل أن تتزوجه .. إنسانة قلبت موازينه رأسا على عقب ونسفت جدران حصن الشك الذى بناه وعلاه ، ليقبع فيه بعيدا عن المرأة، بدليل أنه لم ينشر قصيدتيه «أعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» بعد زواجه .. وتركهما مسجلتين على أشرطة كاسيت ! .

ويمناسبة الحب والبغض فتساءل : هل كان محمود شاكر رجلا غير محبوب للمثقفين المتغربين لأنه نجح فى مهمته وهى كشفهم أم لأنه قال كل شئ .. فصعب على قرائه تصد

قصيدة القوس العذراء

أجمع النقاد على أن الشعر هو مفتاح شخصية محمود محمد شاكر ، ولولا تمازج شاعريته الأصيلة مع علمه الغزير ما ولد منهجه التذوقى ، وأن قصيدته «القوس العذراء» تحديدا هى مدخل الإدراك المعرفى لكل ما غلق على الفهم من أعمال محمود شاكر حتى التذوق نفسه .

وقد قرأت يوما عن فرضية تقول : «إن الإلهام ليس هو الحالة التى يوجد عليها الشاعر عندما يكتب قصيدته ، بل هو الحالة التى يأمل الشاعر أن يضع فيها القارئ الذى سيقرأ هذه القصيدة» .

فما هى قصيدة «القوس العذراء» هذه ولماذا فازت وحدها بكل هذا الثناء ؟ ولماذا أجمع نقاد محمود شاكر على أنها قمة أعماله ، بل منارتها ؟

هى صدى قصيدة شاعر جاهلى مخضرم ، هو الشماخ بن ضرار القيسى : وهى قمة إحساس الفنان لدى محمود شاكر ، حيث ترجم لها برسالة رائعة موشاة بالأفكار والخواطر والوسوسات التى انبعثت من نفسه بلقاء بينه وبين صاحب لا تبلى مودته ، دار بينهما حديث فى شأن إتقان العمل ، فلما قفل عائدا إلى داره أبى هذا الحديث إلا

أن ينقلب عـائدا معه إلى الطريق .. يسر له بوسـوسة خفية ، بحيث أوحت لنفسـه بالنظر إلى الإنسـان وكل حى من حيث إتقانه عـمله .. فوجد أن كل حى غير الإنسـان - نمـلة كانت أو طائرا - يمضى فى أمره وفى تدبيـر حياته ، على سنة لا تتبدل وهـدى واضح لا يلتبـس ، تمر الأحقـاب والقـرون وتخـتلف البقـاع . والنهـج فى كل درب من دروبها هو هو لا يتغير ، لذلك فتـاريخ أحـدثها ميـلادا ، كتـاريخ أعرق أسلافها .

أما الإنسـان فكـان فى مطلع فجره فى حال تشبه حال غيره من الكائنات الحية ، من حـيث قوة الفطرة ، واقتيـادها له .. ولكنه ثبت عليها وعمر ، نظر إلى معروفـها فاعتـبر ، وهجم على مجهولها فاستنكر ، أى أنه أعمل عقـله بالفكـر وحـرك نفسـه بالهوى ، ومن يومئـذ حاد عن النهج الذى لا يختـل .. وبمقدار ما يحصـل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من الفطـرة السـليمة التى ضلها يوم قلق وحاد .

فما هى قصيدة الشماخ الأصلية التى اختارها محمود شاكر ليدخل قصيدته المبتكرة فيها ؟ أو يعارضها ؟

المعروف أن قصيدة النهج والمعارضة والتشطير والتخميس وما إليها توارد قولها على مر العصور لا فرق بين كبواتها وازدهارها ، واختلفت آراء نقاد الشعر حولها . فريق صنفها بمحاولات يبدأ الشعراء بها لصقل تجاربهم ، وغالبا ما تكون ضعيفة لا يجرؤ الشاعر على إضافتها

إلى قصائده الأخرى بعد أن يكون قد تمكن من قول الشعر ! والفريق الآخر نفى هذه الخاصية عن هذه القصيدة لأنها تنبثق دائما من شعور غامض وصراع مرير وقوة عارمة يترجمها صاحبها فى الكلمات والحروف التى تأخذ فى كثير من الأحيان شكل القصيدة الوجدانية .

وأيا ما كان الرأى لم تستطع هذه الطرق جميعا أن تخفى رياء تحتها ، أو تبرز فخارا فوقها .. فقد توهج المتألق فيها ، «فنهج البردة» مثلا وافاها ضياؤها عين البوصيرى حين استيقظ بعد رؤيته الرسول الكريم فى منامه ، ووجدها متطابقة مع معلقة امرئ القيس فشالت قصيدته وطارت غير عابئة علوا وفخارا .

وربما كان من استباق الأحكام أن نقول إن قصيدة «القوس العذراء» يقترب حكم النقاد عنها من حكمهم على قصيدة «نهج البردة» .. إذ تعيد إلى الذهن قوله تعالى فى سورتى «التين» و«الشرح» : «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» ، «وإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» ومع الحديث الشريف «إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه» .

والقصيدة الأم تحكى قصة ساذجة فى مظهرها عن قواس صنع قوسا فأتقن صنعها حتى أن رميتها لا تخيب ، والسهم المنطلق منها لا يضل الطريق إلى هدفه ، ثم اضطره فقره وحاجته إلى المال أن يبيع هذه القوس التى سواها بيديه ، فندم بعدها حتى كاد يحبط ، لولا أن

إرادته وافته فى أن يصنع غيرها ، فهو يصف لواعج القواس بعد ما باع قوسه بثمن لا تباع مثلها بمثله :

فلما شراها فاضت العين عبرة وفى النفس حزاز من الوجد حامز، ولكن عالم الشعر عند محمود شاكر تخطى كل تلك الصعاب بعينه البصيرة إلى ما تجيش به نفس الشاعر من أحاسيس إنسانية .

وقد جاء صدى ما أثارته أبيات الشماخ «ثلاثة وعشرون بيتا» من صور ومعان فى نفس شاكر ، مع قصيدته هو على ثمانية أقسام فى «مائتين وتسعين بيتا ، منها سبعة وثلاثون كانت المقدمة .. تلاها بثمانية أبيات عرض فيها خبر عامر شقيق الخضر ، وحكاية القواس الذى ابتاع منه قوسه ، وتناول كل جزئية من الجزئيات التى جاءت فى كلام الشماخ بطريقة استفهامية مفصلة .. أداتها كيف .. يحث بها على استخراج المعانى من النفوس ويثير بها الشوق ، ويبعث بها الخواطر الداعية لحديث إتقان العمل . فجاء إنشاده هكذا :

«فدع الشماخ بنبئك عن قوسها البائس فى حيث أتاها :

أين كانت فى ضمير الغيب من غيل نماها ؟

كيف شقت عينه الحجب إليها ، فاجتباها ؟

كيف ينغل إليها فى حشا عيس وقاها ؟

كيف أنحى نحوها مبراته ، حتى اختلاها ؟

كيف قرت فى يديه ، واطمأنت لفتاها ؟

كيف يستودعها الشمس عامين .. تراه ويراها ؟

كيف ذاق البؤس .. حتى شربت ماء لحاها ؟

وبعد خمسة وأربعين بيتا تجيء ثلاثة أبيات من شعر الشماخ .. يتلوها مقطع طويل آخر من شعر محمود شاكر وهكذا دواليك .. ثم خاتمة نثرية يعتذر فيها عن التطويل .

وقد يستفهم البعض لماذا اختار محمود شاكر الشعر ليترجم به عن إتقان العمل ؟ فيجيب بأنه «مفكر يرى أن أعراف الأمة العربية وجذورها وعبقريتها المتميزة . ممتدة وراسخة من خلال لغتها الشريفة ، فلا يسلم شرفها ولايستقيم أمرها بدون سلامة الأصل الأول فى آدابها . وهو الشعر الجاهلى ، ولو جردوها منه لصارت بلا أب ولا أم ولا قبيل ، فلا تقول شعرى وشعرائى ، وأجدادى وآبائى ، كما أنه أجدى وسيلة فى تقويم لسان الذين أسلموا من غير العرب .

قصيدة القوس العذراء نشرتها «مجلة الكتاب ، التى أغلقت لأن توزيعها كان ضئيلا سنة ١٩٥٢ .. إلا أن القراء عرفوها بشكل أكثر انتشارا عام ١٩٤٦م عندما ظهرت كديوان عن دار العروبة .. ومن الجميل أن الديوان نفسه قد ضم إبداعين لها . أولهما شعرى والآخر نثرى .. حيث أستهله بقصيدة غزلية فى القوس حيث إن للقوس فى الأدب العربى – منذ أقدم عصوره – وجودا يتجاوز حدود الواقع إلى الرمز.

وها هو الشاعر الفذ محمد حسن إسماعيل صديق محمود شاكر الحميم ينشد قصيدة ثم وينشرها بخطه الموسيقى الجميل استهلالا لديوان القوس العذراء . كانت بدايتها :

من قبل أن تخلق فى غصنها والدهر يروى سرها للأزل

وأوسطها :

نوبتها نورا .. وشعشعتهـــا عذراء فى خلد ضحاه أهل

وخاتمتها :

ماهى قوس فى يـــد نابل وإنما ألـــواح سحر نزل

أما الإبداع النثرى الذى ختم به ديوان القوس العذراء فكان بقلم الأستاذ عادل الغضبان رفيق صبا محمود شاكر حيث قال ضمن ما قال : «ليست الجوانب الفنية فى قصيدة الشماخ ولا العواطف النبيلة فيها ، ولا الصلات الروحية بين الفق وصاحبه ، ليس كل هذا هو الذى حدانا لكتابة هذه الكلمة ، بل دفعنا إليها اغتباطنا بأن نجد الفن مجازا يصل بين الأرواح المجندة وموضوعا تجرى عليه رسائل الإخوان فترقى على سبحات الفن إلى سماوات الفكر وفراديس الأدب الخالدة» (١) ..

وربما كان لرفقة الأستاذ عادل الغضبان بصاحب القوس منذ الصبا أثرها فى ظهور إبداعه فى عام ظهور الديوان ، وأنه تسنى له قبل ذلك التعمق فى القصيدة وفهم مراميها من زمن إنشائها .. ذلك أنه مرت ثلاثة عشر عاما من وقت نشرها حتى نشرت مقالة الدكتور زكى نجيب محمود عن القوس فى نفس المجلة .. الأمر الذى يجعلنا نتساءل هل جاء نشر مقالة الدكتور زكى متأخرا .. أم أن إبداع شاكر استحوذ على كل هذا الوقت ؟ و .. فى ذلك يقول «درة ساطعة هذه بين سائر

«مجلة الكتاب فبراير سنة ١٩٥٢» .

الدرر ، وآية هذه من الفن محكمة بين آيات الفن المحكمات .. هو كتاب فى ست وسبعين صفحة صغيرة ،رقمت أسطرها صفحة صفحة ، كما ترقم حبات الجوهر الحر يصفها الخازن فى صندوق الذخائر ، لكى لاتفلت منها على الرائى جوهرة ، ولو كان قد كانت لى الكلمة عند طبع الكتاب لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة ، لأن لفظه نقطة من سطر لؤلؤ» .

ثم يقول «والكتاب قصة ترويها صفحاته ، فإذا هى قصة الفن الخالد .. كيف تنبثق آثاره من ينبوع الفطرة الإنسانية فيظل يتملاه ثم يضيف إليه» .. ويظل الدكتور زكى يستنطق الكلمات بين السطور .. ليصل إلى أن المعنى الأخير للقوس العذراء يمثل أصول المذهب الطوبائى الحديث [1] .

ومضت الأيام والسنون حتى كان عام ١٩٨٢ حيث ظهر كتاب «دراسات عربية وإسلامية» فنجد اثنين من تلامذة محمود شاكر يهدونه طيه بحثين عن «القوس العذراء» معتذرين عن إرجائهم الكتابة عنها طوال تلك المدة .

وأول الأبحاث المهداة لمحمود شاكر فى هذا الكتاب .. كتبه الدكتور إحسان عباس «فلسطين» فى ثلاث عشرة صفحة من القطع الكبير .. وضح فيها أن المحور الذى دارت حوله قصيدة القوس العذراء هو

---

(١) مجلة الكاتب سنة ١٩٦٥ .

العلاقة بين الإنسان والإبداع ، وأن محمود شاكر يؤمن أن العمل قد يقترن بالنفع بينما لايقترن الفن به ، ولكن كليهما لايتم خلقا سويا إلا بالإتقان ، لأن محمود شاكر كان ممتلىء النفس أيضا بقول الرسول الكريم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وهو دعوة إلى الإبداع فى كل صعيد . وهو ظل لم يكن له أثر فى قصيدة الشماخ الجاهلية» .

وعندما حكم الدكتور إحسان على القصيدة ، قال : «كل خصائص هذه القصيدة ١٩٥٢م كانت ترشحها لأن تكون معلما على طريق الشعر الحديث فلمَ لم تصب هذا الحظ ؟ ولمَ لم تثر كثيرا من الاهتمام يوم نشرت ، ولعل ذلك كان فى العام نفسه الذى نشر فيه بدر شاكر السياب قصيدته «المومس العمياء» وهو أبرز الشعراء المحدثين وأرسخهم قدما ؟ ثم يعلل الدكتور إحسان ذلك بأن قصيدة «القوس العذراء» نشرت فى مجلة لم تكن ذات قراء كثيرين .. فلم يتعرف إليها النقاد إلا بعد أن وضعت فى صورة كتاب .. وكان الشعر الحديث قد قطع شوطا بعيدا ، وكان طولها حائلا دون توفر الصبر اللازم لجلاء ماتنطوى وما ترمز إليه ، أضف إلى ذلك أن القصيدة لاتستطيع أن تستغنى عن مقدمتها النثرية ، لأنها تكون جزءا أصيلا منها وهذا شىء قد أفقدها الاستقلال وجعلها مفتقرة إلى فاتحة ، ثم إن محمود شاكر ملوم أيضا .. ولو شفعها بنظائر لرسخت قدمه فى مذهب شعرى جديد .

أما المقال الثانى فقد كتبه الدكتور محمد مصطفى هدارة «مصر» وكان بعنوانين نثرى وشعرى الأول «القوس العذراء - رؤية فى الإبداع الفنى» والثانى :

ماهى قوس فى يد نابل .·. وإنما ألواح سحر نزل

وقال ضمن كلام جيد كثير عن صعوبة شعر الشماخ صاحب القوس وبداءة فكره ، وكيف أعاد محمود شاكر تركيب قصيدته و.. و.. إنه يحس نحو «القوس العذراء» على الهيئة التى انتهت إليها .. إحساسا قويا بأنها قصيدة تحكى حدثا وتتضمن مقدمة تهيىء الأذهان لهذا الحدث ، وتتابع الشخصية الرئيسية فى القصة وهى القوس نفسها، فتحكى ماحدث لها من تطور وتغير وقائع مرتبطة بحياة صاحبها . وهذه التغيرات أخذت تتعقد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الذروة ، ثم كان الحل بعد ذلك للعقدة التى تجمعت فيها خيوط الحدث .. وهى أن الإنسان القادر على صنع التمثال الجميل إلى درجة عشقه ونسيان مادته وتمثله وجودا بتعبده ، قادر أيضا على تحطيمه وإعادة صنعه والارتداد إلى الحقيقة التى نسيها زمنا .

وهذا الختام يعبر عن فلسفة التفاؤل والإيمان بقدر الإنسان وشموخه ، وبأنه مزاج حى للعقل والعاطفة والتخيل والواقع ، وبأن فى مقدور الإنسان أن يعود إلى العقل والواقع فلا يضيع فى ضباب العواطف والأوهام ، وبهذا كله أصبحت «القوس العذراء» رؤية جديدة وغير مسبوقة فى الإبداع الفنى ، تأخذ مكانها فى الذروة من الأعمال

الرائعـــة فى أدبنا المعـاصـر ، بل فى الأدب الإنسـانى فى كل زمـان ومكان .

ولايفوتنا أن ننوه إلى أن الدكتور هدارة وقد اعتبر «القوس العذراء» قصيدة قصصية قد أشاد بالمقدمة النثرية التى نعتها الدكتور إحسان بقـوله : «ألقت هذه المقـدمـة الأضـواء على الحـدث وتصـوره ، وعلى الشخصية المحورية الحقيقية فيه وهى القوس ، والشخصية الثانوية وهى صاحبها ، وأبانت كيف تطورت العلاقة بينهما منذ التقيا حتى حدثت مأساة الفراق» .

ولأن الدكتور محمد أبوموسى الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر لم يدرك نشر إبداعه عن «القوس العذراء» فى الكتاب التكريمى ولطول هذا الإبداع وتناوله مشكلة التراث ورؤيته حياله .. فقد نشر إبداعه بعد ذلك تحت عنوان «القوس العذراء وقراءة التراث» حيث رأى أن «دراسة التراث لاتقف عند استيعاب كل مافيه .. إنما العناية به وأن «نستخرج مضمره .. ونجهر بهمسه ونبين عن وحيه .. وهذا ما فعله الأستاذ محمود شاكر فى «القوس العذراء» وكثير من ودائعه وروائعه التى تحتاج إلى المدارسة والتحليل والمناقشة ، لأنها منهج مستقل وطريق مغايرة» .

أما عن المقدمة النثرية التى كتبها محمود شاكر لهذه القصيدة ، فقد اعتبرها الدكتور محمد أبو موسى جوهر القصيدة .. لأن فحواها أو معناها : «أن إتقان العمل ، وأخذ النفس ورياضتها عن طريق المثابرة

فى ذلك ، هو فى حقيقته سعى دائب نحو اكتشاف الذات ، ورحلة تتوخى القبس الهادى الذى خبا فى اعماق الانسان ، وبمقدار مايحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من شاطىء الحقيقة الأزلية المطمورة فى داخل نفسه ؟ والتى ضلها يوم قلق وحاد ، وهذه المعانى كما نرى غريبة مستورة ، لا أعرف أحدا من الذين يعالجون صنعة البيان شق حجبها بهذا التألق البيانى الفذ .. ولا أحسب هذه اللغة الشريفة كشفت عن جوهرها الشريف لواحد من أهل زماننا ، كما كشفت جوهرها الشريف لهذا العالم الجليل ، لما رأته حفيا بها أنبل ماتكون الحفاوة ، وفيا لها أكمل مايكون الوفاء .. كما أن التفكير فى هذه المسألة حين يقارن بما يقوله أهل النظر ، يرى حيويا وعلميا لأنه يجعل إتقان العمل والدأب فيه طريقا واصلا إلى استنباط ودائع الفطرة ، وإثارة كوامن الطاقات ، وبالمثابرة وحدها يمكن للمرء أن ينتقل من طور من أطوار الفكر والعمل إلى طور آخر ، أسمى وأسنى وقل مثل ذلك فى الجماعات والأمم» .

ويأتى عام ١٩٨٩ وفى شهر أبريل منه تنشر مجلة الهلال مقالة عاشق العربية محمود شاكر بقلم الدكتور شكرى عياد .. فنتوقف عندها بما ذكرته من قصيدة القوس العذراء حين أشار إلى أن «الشاعر القديم ، والجاهلى على الخصوص ، كان فيه حياء فطرى يمنعه فى معظم الأحيان أن يتحدث عن نفسه مباشرا ، ولكن عندما أدخل محمود شاكر قصيدته الخاصة فى قصيدته ، جاء النص الجديد يراوح بينهما

فى إتقان وإحكام .. حتى صار شعر شاكر ونثره حول قصيدة الشماخ كأنه مرايا تكبر وتصغر وتقرب وتبعد .

والعمل فى مجموعه عمل قديم فى قالب جديد يضاف إلى قالب المعارضات الذى لم يستنفد إمكاناته بعد ، بحيث إن القالبين يمكنهما أن يبدآ طورا جديدا وحديثا كل الحداثة عن أطوار الشعر العربى .

وليت الذين يتحدثون عن التناص ، أو تداخل النصوص ، من نقادنا الجدد يلتفتون إليه ، والشاعر الحديث يملأ قصيدته بالتفاصيل ، حيث يكتفى الشاعر القديم باللمسة ، ومن خلال هذه التفاصيل تترامى عاطفة الشاعر الحديث بل قصة حياته فى عشق العربية لغة وعروبة .

فالقوس العذراء: قصيدة فريدة فى الأدب العربى قديمه وحديثه والمظلومة أيضا بين كل ماكتب فى القديم والحديث» .

لمحة خاطفة عن

تفاصيل الشق التاريخى :

ترى ما هى الرواسب التى تراكمت فوق المنهج المستقيم ، الذى كان كالشمس المشرقة يهدى علماء هذه الأمة العربية السائرين على الطريق المستقيم حتى القرن الحادى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ، والذى استوجب الشق التاريخى فى منهج محمود شاكر الذى تجاوز منهج الجرجانى ، حتى تجلى نوره الوضاء - بعد عشر سنوات من البحث والمعاناة - ليسير عليه الخلف فيحقق أمجاد السلف ؟

يجيب محمود شاكر عن هذا السؤال .. بأن يأخذك فى رحلة إلى أعماق التاريخ لترى اللحظات الأولى للتصادم الصامت المخيف الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية حين سقطت الإمبراطورية الرومانية .. فعم الظلام .. والتى سماها أصحابها الأوروبيون «القرون الوسطى».

و «من القرون الوسطى» حتى جاء «عصر النهضة» فى القرن السادس عشر الميلادى كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلب على رقعة ممتدة من حدود اليمن إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب افريقية، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة بعد أن رد النصرانية وأخرجها

من الأرض، وحصرها فى الرقعة الشمالية و.. ومن ثم بدأت «الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م» - ٤٨٩هـ وقعت الواقعة .. فبعد أن أكتسحت الأرض المسيحية فى آسيا ، فى شمال الشام ، ودخلت برمتها فى حوزة الإسلام . سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان فى طرف أوربة الشرقى سنة ١٤٥٣م.

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها ، وعلى سرعة ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام منساحة فى قلب أوربا ، لم تفت فى عضد المسيحية الشمالية .. حيث دار الصراع بينها وبين الإسلام فى مراحل أربع :

المرحلة الأولى : صراع الغضب لهزيمة المسيحية فى أرض الشام ودخول أهلها فى الإسلام ، والمرحلة الثانية : صراع الغضب المتدفق من قلب أوربا مشحونا ببغضاء جاهلة ، سفحت أول ما سفحت دماء أهل دينها من رعايا البيزنطية ، والمرحلة الثالثة : اندحار الكتائب الصليبية ، وإصلاح خلل الحياة المسيحية، بالاتكاء الشديد الكامل على علوم أهل الإسلام . أما المرحلة الرابعة : فهى مرحلة صراع الغضب المشتعل بلهب البغضاء والحقد وهو وحده الذى صنع لأوربا كل شىء من النهضة إلى يومنا هذا .. والذى رجه بقوة فتح القسطنطينية .. فأدى بهم إلى اليقظة الشاملة .

ومن يومئذ نحى السلاح جانبا وصارت القاعدة هى اجتناب

استثارة هذا العالم الضخم المبهم ، ثم العمل الدائب البصير الصامت الذى يتيح لهم يوما تقليم هذه الأظافر وخلعها من جذورها ، ثم استنفاد قوته بالمناوشة والمطوالة والمثابرة .. حتى يأتى عليه اليوم الذى لا يملك فيه إلا أن يستكين.

وكانت وسيلتهم فى تحقيق كل ذلك ، بعثه أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية تخرج لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكتب شراء أو سرقة ، وهم من عرفوا بعد ذلك بالمستشرقين ، حيث لبسوا لجمهرة المسلمين كل زى ، وتوغلوا بينهم يستخرجون كل مخبوء من الأحوال فى دار الإسلام عامته وخاصته ، وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد «الإستشراق» آلاف مؤلفة من مخطوطات من كتب دار الاسلام نفيسة منتقاة، مشتراة أو مسروقة ، والتى عرفوا أن فى مكنونها سر تفوق العرب وتقدمهم وسموهم، وبهذا العلم التليد كسبوا هم المعركة، وعلى علم هؤلاء المستشرقين وخبرتهم التى امتصوا رحيقها من إرث العرب والمسلمين أرسيت دعائم «الاستعمار» ورسخت قواعد التبشير بما أصدره من كتب فى جميع مناحى العربية من شعر إلى فقه إلى تشريع إلى .. إلى .. باللغة العربية .. حتى يقرأها المسشرقون فى البلاد بالتبادل فى شتى الدول الاوربية الاستعمارية .

ويحسب جمع من المثقفين العرب أن هذه الكتب أثرت العربية ، لذلك يحذرنا محمود شاكر . لأن المستشرق لا يمكن أن يصل إلى شىء يثرى العربية وهو لم يعرفها إلا بعد أن استوى على سوقه .. ثم إن ثقافته

لتى ارتضع لبانها مخالفة للثقافة العربية .. كما أنه ليس بعيدا عن لهوى بل إن الهوى هو الذى يحركه .. ومن ثم لن يستطيع الإمساك بشطري المنهج .

ولاحظ شاكر أيضا أن المستشرقين لا يطبعون أكثر من خمسمائة نسخة من كتبهم وابحاثهن الاستشراقية توزع على مراكز الاستشراق فى أوربا وأمريكا .. بينما لا ترسل سوى نسخة أو نسختان أو عشر على الأكثر للبلاد العربية . لأنها وضعت أصلا للمثقف الأوربى حتى يعادى المسلمين والعرب على السواء .

وينبه الأستاذ شاكر إلى من يتصور مثلا أن فرنسا طوال حياتها فى صراع مع إنجلترا .. وربما انعكس ذلك على اختلاف رؤى ومواقف مستشرقيهم .. لكنه يؤكد أن الاستشراق فى أوربا كلها هيئة واحدة .. وهدف واحد ، وبغضاء واحدة للعرب وشره لكنوزه وثروته لتحقيق الرفاهية الأوربية .. لأنهم فى الأصل همج هامج .. نشأوا جياعا فى صحراء مجدبة .

ثم يلفت محمود شاكر نظر كل من يقولون أننا نفىء فى ظلال اختراعات الغرب فيطلب منهج الفصل بين ما يسمى «ثقافة» وبين ما يسمى اليوم «علما بحتا» لأن الثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد ، والعلم مشاع بين خلق الله جميعا فالجبر مقطوع من شجرة بينما للقصيدة أب يحميها .

لذلك يحذرنا من زخرف الألفاظ وتلألئها والتى دأب المستشرقون

على الترويج لها مثل الجديد والقديم ، والأصالة والمعاصرة ، والثقافة العالمية والحضارة العالمية فهذا كله تدليس يراد به سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة . لتبقى تبعا لها، لأن الثقافة لارتباطها بالدين متعددة الأديان والملل.

ذلك أنه فى الوقت الذى يقول فيه المستشرقون ذلك . فإن فجيعتهم بسقوط القسطنطينية مازال يعتمل أثرها فى نفوسهم .. حماسة وغضبا للمسيحية ، ويرسخ الإصرار فى قلوبهم على دفع غائلة الإسلام. عندئذ دخلت أوربا كلها فى عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار ، وبلغ السيل الزبى ، فكانت يقظة محسوسة فى جانب ، وغفوة لا تحس فى جانب، وشال الميزان ، فبعد سقوط الأندلس ، انطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الاسلام فى أطرافها البعيدة فإذا دار الإسلام محصورة فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية فى الشمال ، وشيئا فشيئا فقدت دار الخلافة فى القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة مقدرة !

ورغم حدوث ذلك .. كان الفرق بيننا وبينهم خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر، بل أكثر من ذلك، فإن اليقظة الأوروبية كانت بعد فى أول الطريق وتتكىء اتكاء شديدا على ما كان عندنا .

عندئذ توجس بعض علماء العرب متفرقين على ساحة الأمة .. توجسا غامضا لشر مستطير آت لا يدرى من أين ؟ فانبعثوا يحاولون

إيقاظ الجماهر المستغرقة فى غفوتها عن إرث أسلافهم العظام الذى أصابه الخلل فى كل مناحيه .. من هؤلاء خمسة من الأعلام هم : «البغدادى ١٦٢٠ - ١٦٨٣» فى مصر ، «الجبرتى الكبير ١٦٩٨ - ١٧٧٤» فى مصر أيضاً ، «ابن عبد الوهاب ١٧٠٣ - ١٧٩٢» فى الجزيرة العربية «المرتضى الزبيدى ١٧٧٢ - ١٧٩٠م» فى الهند وفى مصر ، «الشوكانى ١٧٦٠ - ١٨٣٤م فى اليمن».

هؤلاء الخمسة .. كان لهم فضل المبادرة إلى يقظة بلادهم ، يقظة كانت حقا متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال، ولكنها كانت قريبة التواصل ، وشيكة الالتئام ، لأنها منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضارتها فى حدود الإسلام ، بعكس يقظة أوربا التى كانت متفجرة بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفى، وشملها مجتمعهم بالضغينة المتقادمة ، بهدف العودة لاختراق دار الاسلام بالدهاء والخداع والمكر .

وكان أكبر الصراع المتوحش بين فرنسا وإنجلترا على الطرف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام فى دار الخلافة «تركية» أن تصنع لإنقاذها شيئا ذا بال .. فأنشأت إنجلترا «شركة الهند الشرقية البريطانية»، وتبعتها فرنسا ، فأنشأت «شركة الهند الشرقية الفرنسية» ، وظل الصراع محتدما حتى قضت الشركة البريطانية على الشركة الفرنسية ، قضاء مبرما .

وعندما عادت فرنسا من الهند تلعق هزيمتها ، كان الاستشراق قد

أعد لها وجبة دسمة .. وهى أن الحين قد حان لاختراق قلب دار السلام – مـصـر – من الشـمـال و حـتى تداهم «اليـقظة» التى أرقت منام الاستشراق كما هاجم الإنجليز اليقظة من الجنوب .. الامر الذى يفسر تطابق تواريخ تقارير المستشرقين عن مصر .. وتاريخ يقظتها .. ووجوب البدء فى العمل لدى فرنسا لغزو مصر .

وهكذا فى أول يوليـو سنة ١٧٩٨م ١٧ من المحـرم ١٢١٣ هـ .هوى نابليـون كـالعقـاب على مـصـر، وتسـتطيع أن تقف على حقـيقـة الحملة الفرنسـية على مصـر فى «رسـالة فى الطريق إلى ثقافتنا» فى مـقـدمـة الطبعـة الثـانية من المتنبى . أو طبعـاتها المتتـالية التى أصـدرتها «دار الهلال» منفصلة . حيث ركز فيها الأستـاذ محمود شـاكـر على خطر رسالة نابليون – بعد أن هرب من مصر – إلى خليفته كليبر ، كما ركز على عمل المستشرقين فى تجنيد أعوان لهم من اليهود وشذاذ الآفاقين من الأرمن والأروام والمالطيين فى مصر .

حتى جاء الاحتلال الإنجليزى .. وبدأ الاسـتشراق الإنجليزى فى تكوين «حزب» قـوى ينـاصـره .. ووضـع دنلوب أسس «التـفـريغ» الكامل لثقـافة طلبة المدارس المصرية من ماضى أمتـهم المتدفق فى دمـائهـا مرتبطا بالعربية الإسلامية وقد أبان قصة هذا التفريغ فى «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» فى مقدمة كتاب المتنبى من صفحة ٢٠ حتى ٢٩

وهذا الفـائت كله هو ما أحدث المناهج الأدبية الفاسدة التى أدركها الأستاذ محمود شاكر ورفضها رفضا صريحا قاطعا ، حيث بدأ وحده

تلك الرحلة التى كانت شاقة جدا وممتعة جدا، لأن الهدف الجميل هون عليه كل الضنى والتعب .

ووفقا لمنهج محمود شاكر بشقيه .. فإنه يعتبر أغلب من درسوا فى الخارج - وكانت أساتذتهم ومراجعهم استشراقية - «مستشرقيون عرب» - وإذا كان المستشرقون عرفوا ما أقدموا عليه .. فإن أغلب أصحاب البعثات عميان ، بدليل أن لطفى السيد هاجم بعد عودته من الخارج اللغة العربية ، كما هاجم المجامع اللغوية وقال بعدم جدواها . ثم اشترك فى المجمع اللغوى بعد إنشائه ، بل رأسه عدة سنوات.

وإسماعيل مظهر كان يدافع قبل البعثة عن العربية لأنها التى تجمع بين البلاد العربية ، ولابد أن تكون موحدة فى اصطلاحاتها ، ولكنه لم يعد من البعثة بالدارونية التى تخالف الإسلام فقط بل اقترح أيضاً اتخاذ الحروف اللاتينية كرسم للكتابة العربية . وقد قرأنا من قبل ما قاله طه حسين .. وقال ذلك فى الكل إلا الدكتور زكى مبارك . الذى عقد مقارنات بينه وبين طه حسين فى الشكل والمضمون.

أما الأستاذ أحمد أمين وهو خريج المدارس الشرقية فإنه ما إن عمل مع الأساتذة المستشرقين أيام عمادته لكلية الآداب ، حتى رأيناه يهاجم الأدب العربى بل ثوابت ثقافتنا كلها، مما جعل الدكتور زكى مبارك يرده فى عدة مقالات سنة ١٩٣١ ، وما انشق الدكتور هيكل عن طه حسين ، إلا بعد أن عاد إلى الاسلام وقاطع العلمانية والفرعونية معا.

وربما كانت تلك التحولات الرديئة وراء عدم احترام محمود شاكر لبعض حاملي لقب الدكتوراه من الخارج في علوم العربية وغيرهم من والمتهالكين على هذا اللقب ، بل يعتبر هذا البعض ذلك وباء وبلاء يضاف إلى السيرك الكبير والفهلوة من حولنا .

ولكنه لا يظلم منهم من أجاد في عمله وبحثه واستمر فيه باقتدار على الابتكار والإضافة .. وإجلاله لكثير من هؤلاء الذين يشرفون أمتهم العربية الإسلامية أينما ذهبوا .. بل هو يستشهد بهم ويسجل ملاحظاتهم على كتبه .

ماذا قال نقاد منهج شاكر

إذا كان محمود شاكر قد أفصح عن منهجه التذوقي ص ١ «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» لأنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٨٧ م ولم يفز عنه بسطر واحد من ناقد، إلا أنه ما إن أفصح عنه حتى تلقفه النقاد الكتاب كل منهم يتفحصه من زاوية رؤيته .

فقد طار اليسار المصرى مثلا فوق شق التذوق في الرسالة وركز على الشق التاريخي فكتب أستاذ الاقتصاد النابه الدكتور «محمود عبد الفضيل» في جريدة الأهالي موافقا على ما أثبته «محمود شاكر» من اختراق ثقافتنا .

الدكتور «شكرى عياد» وجد في صدور الرسالة فرصة للكتابة عن حبيبه محمود شاكر عاشق العربية ، منذ ان كان غضا في السابعة عشرة من عمره المديد إلى أن توصل إلى منهجه التذوقي ،

الذى لم يتوقف فيه إلا فى أمر واحد، هو غرام المتنبى بخولة أخت سيف الدولة.

ثم كشف سر لماذا كان محمود شاكر بالذات هو الذى تمكن وحده - دون سائر المثقفين العرب - من الإمساك بهذا المنهج .. حيث قال :

«محمود شاكر فنان عالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم .. لأن منهجه تذوقى، ولم يسهل ذاك على غيره ممن لم يتمرسوا بذلك المنهج، فنجدهم إذا كتبوا فنا جنحوا إلى تفيهق العلماء، وإذا كتبوا علما شطحوا كما يشطح أصحاب الفن، على أنى أرى الفنان فى شاكر أكبر من العالم ، وأراه فى عرضه لمسألة «التذوق» نفسها وهى مسألة علمية يحسب بروز جانب العالم فيها حسب ما وصفناه يشق ويخلب بصنعة الفنان».

أما عندما حلل هذه الرسالة صديق محمود شاكر الأثير ، الدكتور مجدى وهبه .. فى مقال تحت عنوان «غضب مرتقب» ونشره بالإنجليزية بمجلة «يوميات الأدب الغربى» . وهى مجلة تعنى بشئون الاستشراق الجديد .. الذى يستهدف بدء صفحة جديدة تخالف نظرة الاستشراق القديم ، أو تطمح إلى ذلك على الأقل ؛ فقد استهل تحليل الرسالة وتجليتها برسم الخلفية التى تبرزها ، فألقى الضوء على الاتجاهات الاعتزازية للاستشراق الجديد . ثم تتبع بزوغ الرغبة فى الحوار بينهم وبين المسلمين، ثم حدد أن يكون المحاور عن الإسلام هو صاحب «الرسالة» نفسه، وبرر ذلك بأن الحوار المرتقب لن يجدى فتيلا إذا مثل

جانب الإسلام فيه نماذج مثل طه حسين أو المثقف شبه الماركسى الحديث ، أو حتى من يسمون بالإسلاميين المعتدلين، حيث لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مثمر مع صورته فى المرآة .

وإذا لم يستطع الغرب تقبل كل ما تقوله هذه «الرسالة» قبولا مطلقا .. فإنه من الضرورى أن يلتحموا مع الغضب والاستياء الذى تعبر عنه .. لأنها صوت أصيل معبر عن عاطفة مشبوبة وألمعية بارعة عن أثر ما أحدثه الاستشراق فى العالم العربى بعد اثنى عشر قرنا من المواجهة.

أما الذين شجبوا رسالة محمود شاكر .. فنجدهم فئتين :

الأولى ذات منطلقات عربية تجاذبه الرأى ليرد عليهم .. فيكون فى رده إيضاح لما غمض فى الرسالة ، ونختار نموذجا لها ما كتبه الأستاذ كمال النجمى.

أما الفئة الثانية والتى كان غرض شجبهم إثبات قدرتهم على التصدى لمن قامت شهرته على التصدى .. ولأن تصدى محمود شاكر - كما أوضحنا - كان صدقا وعدلا ، فإن أمر تصديهم له شئ يطول . ذلك أنهم يمثلون جماع مفردات صورة المستشرقين فى المرآة، ونختار نموذجا له ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى (١) .

ونبدأ بما كتبه الأستاذ كمال النجمى إذ يقول بعد مقدمته الرائعة

---

(١) مجلة المصور .

التى أتينا عليها فى غير هذا المكان : «على هذا الدرب مضت أفكار الأستاذ وأعماله وظلت ماضية فيه وسوف تظل فى سبيلها .. يلقى من العنت ما يلقاه كأنه أبو الطيب المتنبى يقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى

وللحب ما لم يبق منى وما بقى

وإنه ليقف اليوم وقد انتهت إليه الرياسة فى علوم اللغة وآدابها ، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدفع عنها «الأعداء» منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التى أعلنها على «الفساد» لا تضع أبدا أوزارها .

ولكن شيخنا على مرارة حفاظه واتقاد حميته ، لن يغضبه فيما نرجو ، أن نعترف له بأن الجديد - يقصد - فى الطريق إلى ثقافتنا ، الذى شرح به منهجه التذوقى وتاريخ وظروف التوصل إليه على طرافته وطلاوته ، هو أشد كتبه عسرا على الأفهام ، فقد تدفقت فيه خواطره وسوانحه تدفقا بالغ العنف تضرب فساد الجو الثقافى كما تضرب أمواج البحر صخور الشاطئ ، فيستهويك عملها ، ويعجبك مدها ، ويطريك هديرها ، ولكنك لا تتبين أولها من آخرها ، ولا ترى منها إلا الزبد الأبيض ممزقا على صدر البحر الغاضب ، طافيا على سطحه ، يحجب ما فى جوفه من كنوز اللؤلؤ والمرجان .

إن كلماته فى هذا الكتاب عن منهجه فى تذوق الشعر والنثر لمن أعلى طبقات الكلام ، ولكنه يوهم قارئه أن أدباء عصره، من أواخر

القرن التاسع عشر إلى الآن ، لم يحسنوا التذوق ، ولم يكن لهم فيه منهج صائب . وما نظن أن هذا رأيه على وجهه الصحيح ولكن الأستاذ أوشك في حماسته لمنهجه أن ينكر التذوق على أدباء عصره أجمعين .

وهو يرى أن «الفساد» لم يدخل على ثقافتنا إلا بعد «التصادم المخيف الذى وقع بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة » أى منذ مائتى سنة تقريبا فى غزوة بونابرت لمصر ، ثم عصر محمد على الكبير .

أفيظن الأستاذ إذن أن ثقافتنا كانت قبل ذلك بخير ، فى أيام إبراهيم بك ومراد بك آخر مماليك العصر العثمانى ، أم يرى أنها كانت بخير قبل هذين المملوكين ؟

ويهيأ لى أننى لو سألت محمود شاكر الإجابة عن هذا المأخذ ، فإنه سيشرح لى الاختلاف بين أن تمر ثقافة أى أمة بأطوار من الركود بل الهبوط ، ولكن تبقى مع ذلك أصولها الراسخة سليمة مستقرة ، وهذا بالطبع مختلف عن الإفساد المتعمد الذى يحدثه الغازى الباغى لترويج نظرياته التى تطابق هواه هو ، فبعد أن يمحو كل ارتباط الأمة المستعمرة بجذورها القومية ، يزرع فى نفوس مجتمعها أزرارا يحركها عن بعد فيحدث مرامهم ، حيث تفسد مناهجها لإغراقها بمناهج واردة .

والدليل على ذلك أنه بعد عصر هذين المملوكين ، جاء عصر الإحياء، على يد البارودى ، وشوقى ، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم وغيرهم.

ثم إن المبدأ الذى يدعو إليه محمود شاكر فى الرسالة تقع مسئوليته على أبناء الأمة العربية ، وهو أن يكون تجديدهم نابعا من إرث قومهم

وليس اتكاء على التجديد الذى ينادى به المستشرقون .. لأنهم فئة لا تستطيع أن تكون محايدة فى نظرتها إلى تراثنا .

بعدها نأتى إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى . والذى وصفناه آنفا بأن أمره سيطول - فنجده قد استهل مقاله بقوله : «لابد أن أعترف فى بداية حديثى هذا بأنى مشفق وجل من لقاء صاحب هذا الكتاب الذى أعلق عليه هنا ، فالرجل الذى أواجهه أستاذ واسع العلم راسخ القدم فى الثقافة العربية التى قدم فيها أعمالا متنوعة ممتازة ، آخرها هذا الكتاب » .

«فالأستاذ شاكر مع علمه الواسع رجل مقاتل ، يرى لنفسه فى حياتنا الثقافية رسالة مقدسة يؤديها بحمية ، ويدافع عنها بجدارة ، لأنه لا يستطيع الفصل بين الثقافة والدين ، ولهذا يحسب الدفاع عن آرائه فى الشعر والنثر جهادا دينيا يلبس له لباس الحرب، ويختال فيه اختيالا ، ويمعن فى ضرب خصومه إمعانا ، فلا يكتفى بتجريح آرائهم ، وإنما ينال من أشخاصهم بنعوته الجارحة ، لا يرده عن ذلك أن فيهم من كانوا أساتذته ، مثل طه حسين الذى يصف الأستاذ شاكر منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى ، والمؤرخ عبدالرحمن الرافعى الذى يقول عنه إنه مؤرخ مدجن، ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » .

وقبل أن نوضح لحجازى وللقارئ لماذا وصف الأستاذ شاكر هؤلاء

الثلاثة بهذه الأوصاف ، نسأل حجازى عن معنى وصفه الأستاذ بأنه «يرى لنفسه» .. «و«يحسب الدفاع عن آرائه» وهل هناك من يوزع على المفكر الرقعة التي يتحرك فيها ، وهل الأستاذ «يحسب» أم أنه فعلا وكما قال الأستاذ النجمى يقف قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدافع عنها الأعداء منذ ستين عاما منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التى أعلنها على الفساد لا تضع أبدا أوزارها .

وبعد فإننا نأتى إلى أحكامه على أعمال وأقوال هؤلاء الثلاثة فنبدأ بالدكتور طه حسين فنقول : إذا قرأت مثلا - وليس على سبيل الحصر - كتاب «المعارك الأدبية» للأستاذ أنور الجندى فى وصف منهجه فى قراءة الشعر لوجدته من أوله إلى آخره شجباً ، لهذا المنهج على الصعيدين الأدبى والسياسى حيث وصلت «قضية الشعر الجاهلى» مرتين إلى قاعة مجلس النواب والشيوخ ، بل إن المظاهرات الشعبية عندما تحلقت بيت الأمة .. ظهر زعيم المرحلة سعد زغلول ليهدىء الثائرين بقوله : إن الدين الإسلامى متين ولا يهتز لكلمات طائشة ، وأنهى خطبته بقوله : ماذا يضيرنا إن لم تفهم البقر ؟

ليس هذا فقط بل إن الدكتور طه حسين . عندما وجد أن من أخذوا عنه لم يسيروا فى معالجة «القديم» حتى يخيل للناس أنه إحياء للقديم وتجديد له بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاص منه والاستخفاف به ، أحس الدكتور نفسه بالخطر ، وهو الذى أضاء لهم الطريق بالضجة التى أحدثها كتابه (فى الشعر

الجاهلى) وكان إحساسه بهذا الخطر الذى تولى هو كبر إحداثه ظاهرا جدا حتى عاد سنة ١٩٣٥ ينشر فى «جريدة» الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانت محصلتها رجوعا صريحا عن ادعائه الأول فى سنة ١٩٢٦ .. استهلها بمقالة عنوانها « أثناء قراءة الشعر الجاهلى القديم الذى سبق وأشرنا له .

ثم قال بعد ذلك فى «حديث الأربعاء» : وقد تحدث إلي المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، هذا الكلام ليس من عندى أو من خارج كتاب فى الطريق إلى ثقافتنا الذى يناقشه حجازى فى هذا المقال .. بل من شهادة الأستاذ شاكر فى ذيل رسالته صفحة ٢٤٩ ، حيث يردف الأستاذ قائلا : «وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه» .

ويقول الدكتور طه : «والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرا غير قليل .. فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا » .

«وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه فى الأدب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ، ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما

اتخذوا منها صورا وأشكالا وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل » .

«والذين تلفتهم الحضارة الحديثة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم وتملأ نفوسهم إيمانا بأن لا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم ، وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمس حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفقوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين» .

هذه مقاطع من كتابات طه حسين التى يدين بها نفسه .. ومنها نتأكد أن «شاكر» كان على حق عندما وصف منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى.

أما قولة شاكر عن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى انه «مُدجّن» التى وردت فى «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» فقد كانت بسبب الأحكام التى تمثل حطه من قدر المصريين وإعلاء لشأن أى غريب عليها مثل الفرنسيين وأسرة محمد على فى مثل قوله : «بعد زواج مينو من ابنة السيد محمد البواب ، وكانت حادثة زواج مينو فريدة فى بابها ، لم يسبق إليها أحد من قواد الجيش الفرنسى ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » .. مما أحزن الأستاذ شاكر ، فكتب يعلق على هذا

المقطع: يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة فى التعبير ، يعبر المسلم ويقول «تهكم زملائه» ؟ ثم يتساءل : ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات والآهات والحسرات ؟

ثم إن من يقرأ الأوصاف التى يزرى بها المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على مصر .. لا يسعه إلا أن يصفه بمثل ما وصفه به الأستاذ محمود شاكر أما قولة حجازى «ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » فهى تؤكد أن حجازى مع كل الذين علقوا على كتاب لويس عوض «أوراق العمر» وشجبوا فيه شاكر بغير اسم وإنما بمجاز من قال «أجاكس عوض» فإنهم جميعا ملكيون أكثر من الملك ذاته .. ذلك أن لويس عوض كتب فى مقدمة كتابه «على هامش الغفران » وهو مجموعة المقالات التى نقدها شاكر : «ولا شك أنى انتفعت بشئ قليل من نقد نقادى ، ولا سيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا » .

إذاً فإن لويس عوض نفسه قد أقر بكل المآخذ التى أخذها عليه الأستاذ شاكر ، وكان من الممكن أن يستفيد منها كثيرا لولا جنوح قلم شاكر ، أو قل لضيق صدر لويس عوض .. الذى فوجئ بمن يرقبه، ثم تعبير دكتور لويس بعد ذلك بسطور بشططه فيقول : «وإنى قد أصيب وقد أخطئ فيما أكتب وفيما أرى ، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير» .

هذه هى الأوصاف الجارحة لهؤلاء الكتاب الثلاثة ، التى جعلت

الأسـتـاذ حجازى مشفقا وجلا وهو يتحدث عن رسالة الأستاذ شاكر «فى الطريق إلى ثقـافـتنا» وها هى تـــذهب جـفــاء . بعــد أن تكلم أصـحابها.

وإذا كان حجازى قد قال فى مقالته هذه : «وليس من طلب السلامة وليست لى حرمة الرافعى أو طه حسين أن أقول اننى أتفق مع الأستاذ شاكر فى عدد من آرائه التفصيلية حول المنهج الصحيح للقراءة ، وحول فساد الحياة الثقافية الراهنة وضعفها ، ولكنى أختلف معه كل الاختلاف فى عـدد من المنعطفات الأسـاسـيـة التى قـامت عليـهـا آراؤه ، ومن هذه المنطلقات أن الثقافة فى رأيه ظاهرة قومية ، لها قوانينها الخاصة وأسرارها المغلقة التى لا يمكن أن تنفتح إلا لأبنائها ، وعلى هذا فلكل شعب ثقافة لا يشاركه فيها أى شعب آخر ، ولا مجال لظهور ما يسمى بالثقافة العالمية ، ومن المنطلقات التى يتشبث بها الأستاذ شاكر ولا أستطيع الاقتناع بها أن الصراع بيننا وبين الأوروبيين كان ولا يزال حتى الآن صراعا دينيا لا مجال فيه لوضع السلاح أو التعايش أو الحوار .. وأخيرا يرى الأستاذ أن نهضتنا الحديثة ليست إلا مؤامرة نسجها الاستشراق والاستعمار فكل ما جد فى حياتنا السياسية والثقافية بداية من أوائل القرن الماضى إلى الآن إنما هو نتاج لهذه المؤامرة .. وكل من ظهر من علمائنا وأدبائنا ومفكرينا فى هذا العصر الحديث .. إنما كانوا أدوات للمستشرقين والمستعمرين .. ثم يقول حجازى : «صحيح أن ثقافة الأمة واحدة لا تتجزأ بتنوع فنونها

واختلاف أشكالها .. فالثقافة فى حقيقتها هى روح الأمة تكشف عن نفسها فى صور مختلفة وتعبر دائما عن خصائصها ، لهذا لا نستطيع أن نفهم آثارها مجزأة مفصولة ، بل ينبغى أن نتلقاها فى وحدتها وتكاملها ، خاصة ، إذا كانت مادتها واحدة ، كما هى الحال فى أدب اللسان » .

ونحن نتعجب من هذا النفى والإثبات المتلاحمين .. ولكننا نسير معه خطوة أخرى ، فنجده يعلق على الخطوات التى وضعها الأستاذ محمود شاكر ليكتسب منهجه فى قوله : «قلت لنفسى : الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه ، فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل فأقدمت إقدام الشباب الجرئ ، على قراءة كل ما يقع على كل كلام .. أيا ما كان هذا الكلام ، من كلام أسلافنا من تفسير لكتاب الله إلى .. إلى .. حتى العلوم البحتة».

ثم يصف حجازى شعوره : «وأنت لا تستطيع أن تدرك مدى سعادتى بقراءة هذا الكلام الجميل ، ليس لأنى لم أقرأ مثله من قبل، فالحقيقة التى يؤكدها الأستاذ شاكر نفسه فى كتابه أن من القدماء من سبق إلى كلام شبيه بهذا الكلام، ومن هؤلاء عبدالقاهر الجرجانى ، الذى كان يرى اللغة نظاما من العلاقات يتحقق فى أحسن صوره حين نضع كلامنا الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، ويعمل على قوانينه

وأصـوله ، وهذا سـر جـودة الكلام شـعـرا ونثـرا ، بل إن هذا هو سـر الإعجاز نفسه » .

ثم يعلق حجازى على ذلك : «الأستاذ شاكر لا يؤمن – إذاً – بنظرية الأنواع التقليدية ، ولا يتقيد فى تذوقه للآثار اللغوية بالشروط الشكلية التى تميز الشعر عن النثر ، لأن ما يهمه فى النص اللغوى هو ما يتلقاه عن هذا النص ذاته بصرف النظر عن القالب الذى أخرجه صاحبه فيه ، بل إن الأستاذ يزيد على هذا فلا يتقيد بالشروط التى تميز لغة الأدب عن لغـة العلم ، وهذه فكرة جـديدة جريئـة يتواضع الأسـتـاذ فـيـرجع أصولها إلى عبدالقـاهر أيضـا ، والواقع أن أصـولها ليست قـديمة ، وليست عـربية ، بل هـى أوربيـة مـعـاصـرة ، فـقـد تعلم النقـاد الاوروبيون الجدد من طريقة الماركسية والفرويدية والبنيوية أن العالم والنفس وأن المادة والفكر كلها فى حركة دائمة ، وفى جدل لا ينقطع ، وأن الإنسان مادام ذاتا واحدة فنشاطه العقلى بالضرورة متواصل متجاوب ، وهذا النشـاط متنوع طبعـا ، وصادر عن ملكات مختلفة ومتمثل فى أشكال متمايزة ، لكنه كله يعود إلى أصل واحد ، ويقوم على قوانين موضوعية ، أو ينطوى على بنية واحدة ، وإن كنا نرى هذه البنية الواحدة تجمع بين الصور اللغوية المختلفة .. هكذا تخلى النقد الأوربى الجديد عن نظرية الأنواع الأدبية ، وعن التمييز بين النظم والنثر وأصبح مستعدا للإقرار بوجود عناصر مشتركة تجمع بين لغة العلم ولغة الأدب، كمـا نرى مثلا

عند «موريس بلانشو» فى كتابه «المجال الأدبى » وعند «رولان بارت» الذى يقول ان الكتابة توجد حيث نشم الكلمات » .

والحق أننا أخذنا أنفسنا بشدة عن التعليق على مقاطع هذه المقالة مقطعا مقطعا لنؤجل الحكم مع نهايتها .. ولكننا مع هذا المقطع الذى بدأ «فقد تعلم الاوروبيون الجدد و .. و ..» ، لا نستطيع ، لأنه لا يخرج عن مجموعة من الكلمات المتراصة عن تيارات شديدة التباين ، لا يجمعها فى الحقيقة خط فكرى واحد ، لذا جاءت منثورة على وجه المقال لتعطى صفة الموسوعية لكاتبها بغير حق فشتان بين الماركسية والبنيوية بل والفرويدية .. ففى حين تقر الماركسية بحركة الجدل وأهميته ، تنحى البنيوية إلى تثبيت الواقع من خلال أن يأتى من بنية محددة ، وإذا نحن تتبعنا تأثير هذه الحركات الثلاث على الأدب المعاصر ، وجدنا أن الماركسية أدخلت بُعد تأثير الظروف المادية والتاريخية على العمل الأدبى فى حين اهتم فرويد بالبُعد النفسى للمبدع أكثر مما يهتم بإبداعه ، على حين تركز البنيوية على العمل الفنى عينه بعيدا عن المبدع، فكيف نجمع هذه المناهج المشقشقة فى سلة واحدة .

بعد ذلك نستحلف القراء وحجازى نفسه: أى المناهج أقدم.. منهج الجرجانى الذى توفى ٤٧٤ هـ.. أى منذ ما ينيف على الألف عام ، هو الأقدم والأصل أم المنهج الذى ظهر حديثا عند «موريس بلانشو» أو «رولان بارت» هو الأصل؟! إنها لمغالطة ظاهرة حقا، فمن المؤكد أن

الأستاذ محمود شاكر، أسس منهجه على الأقدمين وليس على المحدثين من الأوروبيين وهو الذى قاطع أدبهم منذ وقت طويل.. بل إن هذا المنهج قد توصل إليه الأستاذ محمود شاكر عام ١٩٣٥.. أى قبل ميلاد البنيوية، وقبل تعاظم دور فرويد.. وليس لفرويد فى الأصل دور فى النقد.

وبعد هذا المقطع وبدون فصلات أو نقط نرى حجازى يقول: «لكن ما نراه فى رأى الأستاذ على صواب، لا يحجب ما نجده فيه من مبالغة، فاللغة العلمية تختلف لا محالة عن اللغة الشعرية، والنحوى الذى يعرف الحرف فيقول: إنه يدل على معنى فى غيره لا يبين عن نفسه - كما يقول الأستاذ- بل يبين عن حقيقة علمية ندركها جميعا سواء كنا من أبناء اللغة أم من غير أبنائها. نعم إن التعرف قد يحمل آثارا من مزايا صاحبه العقلية أو النفسية فيظهر فيه الذكاء والبلادة والبساطة والتعقيد، لكنه يظل مع ذلك فى مكان من الثقافة يختلف عن مكان الإبانة عن النفس،. يظل لغة برهانية مقابل اللغة الشعرية، أو عبارة مقابل تعبير. لغة الشعر تشير الى الواقع النفسى، أما لغة العلم فتبرهن عليه، ونحن قد نتعلم الإنجليزية مثلا ونتلقى بها علوم الطب أو الهندسة أو الطبيعة فنتفوق فيها، حتى إذا أردنا أن نعبر عن ذات أنفسنا عدنا إلى لغتنا القومية لا محالة».

وذلك الكلام الذى جاء به حجازى لينقد به الأستاذ محمود شاكر، هو عين ما قاله فى منهجه، حيث أوضح أن هناك فرقا بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم ؛ فبقدر ما تتمتع به الثقافة من خصوصية وذاتية،

تفقد جوهرها بفقدانها، فإن العلم يتمتع بعمومية قوانينه ونظرياته.. فالكيمياء لا وطن لها.. ولكن اللغة لها وطن.. لذلك فـإن أى عنصـر خارجى أو وافد لثقافة أخرى لا يمكن أن يكتب له البقاء داخل ثقافة أى أمة إلا إذا تم هضمه وتمثله وفق قوانينها الخاصة كالذى حدث فى العصر العباسى عندما ترجموا الفلسفة، ولم يترجموا المسرح فدل ذلك لا على عدم التخل، بل لأن المسرح لم يكن فنا عربيا ، وإن جاء بعضهم بغير ذلك .. أى أن المسرح فن عربى.

ثم ينهى حجازى مقاله: «ولقد رأينا الأستاذ شاكر ينفى فى البداية قدرة الأوروبيين على النفاذ إلى حقيقة الثقافة العربية واستكناه سرها، لأنهم لا يفهمون لغة العرب حق الفهم ولا يؤمنون بالإسلام» .

وها نحن نراه فى الخاتمة يقول: «إن الاستعمار لم يحكم قبضته على مقدراتنا إلا بفضل المستشرقين الذين تسللوا إلى صميم افئدتنا، حتى لقد ادعوا الإسلام وتكلموا العربية وجاوروا فى الأزهر الشريف».. فكيف وفق بين ما رآه فى البداية وما رآه فى الخاتمة، يقول: إن معارفهم عن العرب والمسلمين إن كانت فاسدة من وجهة نظرنا، فهى صحيحة مفيدة للأوروبيين لأنها تصدهم عن الإسلام وتساعدهم على قهر المسلمين. وهذا مقياس لا أستطيع أن أوافق الأستاذ على دقته فى الحكم على المعرفة» .

ونحن من جانبنا نقول: إن الأستاذ كان دقيقا فى الحكم على المعرفة، ذلك أن منهج هؤلاء المستشرقين كان قائما على فكرة الملاحظة

بالمشاركة، لأن حركة الأنثروبولچيا بالتوازى مع حركة الاستشراق الأولى للبلاد الإفريقية بشكل خاص، والثانية للثقافة العربية ذات الجذور القديمة المتماسكة هى فى النهاية معرفة للآخر، فالأوربيون يريدون أن يعرفوا عنا حتى يستطيعوا أن يتحكموا فينا، وأذكر هنا مقولة لأحد الأساتذة الفرنسيين فحواها: نحن نظام رأسمالى يحاول أن يستبق الصراع، بمعنى أنه يريد أن يسيطر على الصراع قبل حدوثه.

• ويختم حجازى مقاله بقوله: «ومهما يكن الأمر فليست النوايا هى التى تهمنا وإنما الآثار والنتائج. فإذا كان حقا أن نشاط المستشرقين لم يكن مفيدا كله، فلاشك فى أن فيه جانبا عظيم الفائدة، حيث نرى صورتنا فى مرآتهم.. لا لنرى أنفسنا بعيونهم. أو نتخذ ما يقولونه عنا دينا وعقيدة» ... وتلك مغالطة أخرى.. ألا يعلم الأستاذ حجازى حتى بحكم احتكاكه ومجاورته للسوربون - كما جاورنا المستشرقون فى الأزهر الشريف - أن النية تعادل القصد فى فلسفة الفمونولوجيا، وأنها مقابل لفكرة اللاشعور عند التحليل النفسى الفرويدى، والذى يقول عنه صاحبه «اللاشعور».. وبلغتنا العربية : «النية» إنه مثل جبل الجليد يختفى ثلاثة أرباعه تحت الماء. فكيف تنتج النوايا السيئة آثارا ونتائج سليمة كما فى فكرة النية، كما يعرفها كلود ليفى شتراوس بأنها ذات طبيعة رمزية لا شعورية؟

وهكذا نرى أن كل ما أتى به حجازى لا يخرج عن مغالطات يريد بها أن يتماسك فوق الجســر الهزاز الذى يقف عليه محاولا مجابهة

رجل يقول الحقيقة الموضوعية ، رجل كانت شهرته الأولى هى المجابهة.

نسينا فى زحمة المراجعات، المنطلق الثانى الذى لم يستطع حجازى الاقتناع به فى آراء الأستاذ محمود شاكر، من أن الصراع بيننا وبين الأوربيين كان ولايزال حتى الآن صراعا دينيا، فإنه اقتنع به.. ليس بعد أو وقعت حروب سراييفو والشيشان، وإنما فى مقالتيه» المنافقون يتلعثمون» و «أسباب التفاؤل» المنشورتين فى الأهرام بعد فلاحه فى نقد منهج الأستاذ محمود شاكر. حيث قال فى الأولى: إن هناك من الأوربيين والغربيين عامة من لا يحملون لنا غير المقت والكراهية، فكل طريق نسلكه خطر يهددهم.. هذا كان موقفهم منا فى الماضى البعيد والماضى القريب، كما هو موقفهم منا الآن.. و.. وأما فى المقالة الثانية.. وبعد تفاؤله بجمعيات الصداقة بيننا. فإن هذا التفاؤل ينطفىء بعد البيان الذى أعلنه بعض المثقفين الفرنسيين بشأن تأييدهم لهجرة اليهود السوفييت الى فلسطين: و.. انظر إلى سياسة فرنسا الثقافية فى بلاد المغرب العربى، سترى أنها تعرقل سياسة التعريب، بقدر ما تحاول المحافظة على الوضع الممتاز الذى تتمتع به اللغة الفرنسية دون حق، إذ هى لغة أجنبية تستطيع أن تكون الأولى فى بلاد المغرب، ولكن لا ينبغى أن تحل محل اللغة القومية وهى العربية.

محمود شاكر .. مفكرا مسلما

فى مقالاته التى نشرتها «الرسالة» التى تعرض فيها الدكتور محمد

حسن عواد الأستاذ بجامعة الأردن لموقف محمود شاكر من الإسلام ورؤيته الإسلامية يقول إنه مفكر تقوده الرؤية الإسلامية. وما تفرع عنها من ثقافة مختلفة الألوان، فهو يفهم الدين الإسلامى لا على أنه ضرب من الشعائر التعبدية المنفصلة عن واقع الحياة، بل على أنه جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته منذ يستيقظ من نومه إلى أن يئوب الى فراشه، ولإثباته لهذه الرؤية يسلط الأضواء على بعض القضايا التى يعج بها المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث، مستخرجا ما فيها من فساد وخبث آت من الأصول الفكرية الغربية، وإنها لقضايا متعددة الألوان.

قضايا ذات لون اجتماعى: منها رفض تعبير «رجال الدين» حملا على رجال الدين المسيحى، الذين يقصرون حياتهم على الطقوس الدينية وينقطعون للنظر فى مسائلها، ووفقا لذلك يرفض أن يعد الأزهر معهدا دينيا، وهو بالتداعى قد شن حربا على الجاهلية الوثنية - بكل أشكالها كالفرعونية والفينيقية ونحوهما - التى طهرها الإسلام، الذى ختم الله به النبوات والأديان على هذه الأرض..

أما عن مقالاته السياسية التى يعرض فيها قضايا العالم الإسلامى مع الاستعمار، وسلط عليها الأضواء مكثفة تدل على حس سياسى عميق، وتحليل دقيق للأحداث ومتابعة ظاهرة لها، كل ذلك ببيان كاللهب يفيض حماسة وقوة واعتدادا، فهو لا يقنع فيها بتحرير البلاد من أقدام

الاستعمار، بل يتجاوزه إلى تحرير البلاد من أفكار هذا الباغى وقيمه وعاداته وتقاليده.

ومن آرائه السياسية أيضا، إعادة النظر فى شأن الجامعة العربية، والذى يدل اسمها على أنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذى وضعت له. وهو جامعة العرب، أو جامعة الإسلام، أو جامعة الشرق.

اما عن التجديد الذى تلهج به طائفة من المثقفين ثقافة عصرية ليس إلا تمنطقا بالكلام، لأن حقيقة التجديد أنه حركة دائبة فى داخل ثقافة متكاملة يتولاها الذين يتحركون فى داخلها حركة كاملة دائبة.

واللغة [1] العربية لغة القرآن حرص عليها محمود شاكر أشد الحرص فمنحها حياته، وأخلص لها، ونافح عنها، وكشف الخطط الرامية إلى تدميرها، وإضعافها كالدعوة الى اصطناع العامية. أو كتابتها بالحروف اللاتينية.

القسم الثانى: عن فساد حياتنا الأدبية.. فى هذا القسم نجد تحليلا عميقا للأسباب التى أدت إلى فساد الحياة الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى عامة وفى مصر خاصة. ويئول هذا الفساد إلى الحضارة الغربية التى تختلف فى أصولها الفكرية كل الاختلاف عن الأصول الفكرية للحضارة العربية، فحضارتهم الأدبية العصرية للقرن العشرين هى حضارة حيوانية الفضائل ليس فى أعمالها إلا فتنة بعد فتنة، ولا

(١) الأستاذ محمود شاكر لا يحب أن يسمع كلمة «العربية» تعريفا لها، وكأنها ليست لساننا .

نقول هذا فى العلم - معاذ الله - فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ فى بعض أسرار الكون بأسباب المعجزات، وهذه التفرقة الذكية بين الحضارة والمدنية، تصلح أساسا لهداية الحيارى ودرسا قاسيا عميقا لقادة الثقافة فى العالم الإسلامى، عندما اتخذوا من تمجيد حضارة القرن العشرين تدليسا يفتنون به الناس عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة.

القسم الثالث: طريق الإنقاذ: ويقوم عند محمود شاكر على أساسين هما: إنقاذ العالم الإسلامى من أسر التعبد للحضارة الغربية، وإنشاء مدنية منبثقة من الدين الاسلامى، فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب ان تسود العالم.

ولكن كيف يتحقق ذلك؟.. والجواب عن هذا السؤال عند الأستاذ شاكر أن هذا الركاز الباقى بعضه قائما فى العالم الإسلامى خليق أن يدفع العرب إلى حمل أمانة القرآن بحقها مرة أخرى، وحمل أمانة لغة القرآن بحقها مرة أخرى.

والأستاذ شاكر يغمره الأمل والثقة بهذا الجيل من عباد الله المطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة [١] .. وهو غير قانط من خير أمتنا بل لعله أشد إيمانا بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها، وكرم

---

(١) ولذلك نبغ أبناء العرب فى إثبات جدارتهم العلمية ، عندما ذهبوا إلى الغرب ، مثل الدكاترة «الباز» فى الفضاء، و«زويل» فى الفيزياء، و«يعقوب» فى القلب ، وغيرهم كثير.

غرائزها، بل لعله أشد إيفالا بأنها صائرة الى السؤدد الأعظم والشرف السرى، والغلبة الظاهرة، وهذه التمنيات الحارة الصادقة المنبعثة من قلب مؤمن واثق بدينه تستحق التحية والاحترام.. ولا أتردد - والكلام للدكتور محمد حسن عواد، أستاذ الأدب العربى بالجامعة الأردنية - فى مشاركة الأستاذ شاكر فى كل ما ذكره، ولكن الطريق يظل فى النهاية طريقا عاما يحتاج الى تفصيل أكثر، وبيان للخطوات العملية التى يسير فى ضوئها الشباب المسلم حتى تتحقق الغاية المرجوة.. وننال الهدف الذى نصبو اليه، وهو سيادة هذه الحضارة الإسلامية.

هذا تكثيف شديد.. لمناقشة الدكتور محمد حسن عواد، لما كتبه الأستاذ محمود شاكر بمجلة «الرسالة» المصرية واعتمد فيه على واحد وسبعين عددا منها مع أضواء من كتبه «أباطيل وأسمار» و «مقدمة الظاهرة القرآنية» و«المتنبى».. وما كتبه فى مجلة الثقافة المصرية.. ويأمل الدكتور عواد لمن يريد الوقوف على هذه القضايا وقوفا متأنيا فليرجع إليها.. ولما كنت لا أستطيع إيجاد حيز لهذا الزخم من المراجع فإنى أشير له بأن مجلة الرسالة قد جمعت حديثا فى مجلدات.

محمود شاكر والعقيدة

لا نقصد بالعقيدة هنا التعريف الشامل لها من الخلق والعمل العادى، أو تقسيماتها إلى علم الكلام، وعلم الأخلاق، وعلم التصوف وعلم الفقه.. وما إلى ذلك، بل نقصد بالعقيدة اليقين والتسليم لله تعالى ورسوله فى القرآن الكريم والسنة المشرفة عند محمود شاكر.

فاليقين والتسليم عند هذا الرجل من القوة بحيث إن الموضوع الوحيد الذى لا يتكلم أو يفتى فيه هو العقيدة. ولكننا استشففناها عنده من بعض المناسك التى أديناها معه فى بيته أو خارجه.

فصلاة الجماعة فى بيته هى أروع منسك أديته فى حياتى بهذا الخشوع والانغمار ؛ ذلك أننى قبل زيارته ورغم أننى ابنة عالم أزهرى لم أكن أقوم بها بانتظام، ربما لأن تيار الوسط الثقافى والفنى الذى كنت أحيا وسطه طوح بى عنها، فبدأت مع دخولى إلى بيته أستعيد ما كنت عليه وأنا صغيرة ناسكة بل عاكفة عن مخالطة حتى أهلى.. بل كدت أتخيل أحيانا أننى سألد المسيح المنتظر، وعندما سألته عن كلمات التحيات، التى اختلف أداؤها بين كل من سألتهم، أجابنى لأنى كنت وشيكة الدخول الى جلسته.. وترغيبى فى الصلاة.. أن فى العالم الإسلامى ثلاث عشرة طريقة للتحيات.. أما أنا فأقرأها هكذا.

سألته يوما على أى المذاهب هو.. فنظر إلىّ مليا ولم يجب كما هى عادته.. فرحت أقول لنفسى.. هو بالطبع ليس شيعيا حيث يشجبهم مع المعتزلة لاحظت أيضا أنه لا يضع يده على قلبه، كما يفعل بعض المريدين الذين يؤمهم من الشافعية، وإن كان أستاذه المرصفى، كما هم أهل بلدته «مرصفة – بنها» على الشافعية - رغم أن إحكامه الشديد لوضوئه - حتى أثناء مرضه - تعيدنى إلى قول السيدة نفيسه يوم وفاة الإمام الشافعى: «كان يحسن الوضوء، رحمه الله» وعندما نوهت أمامه أن شهادة والدى للعالمية كتب فيها أنه على المذهب

الحنفى، قال بأنها كانت مذهب الحكام.. ورغم تشدده فى أداء المناسك وكثرة استشهاداته برأى أحمد - الذى ظننت أنه يقصد شقيقه أحمد - قبل أن أتبين أنه الإمام أحمد بن حنبل الإمام المعروف.. فهو ليس بحنبلى. قلت له يوما إنك تشبه مالك بن أنس فى كثير من الأوجه ، فارتاب فى كلامى.. ويهيأ لى من مجمل هذا كله مع تصرفاته أنه على مذهب أهل السنة والجماعة.

والآن فى سنة ١٩٩٦.. وأنا أكتب عنه.. يحز فى نفسى كثيرا أن يوكل غيره فى إمامتنا ويصلى منفردا جالسا على مقعد.. وأرجوه دائما أن يتغلب على مرضه ويعود فيؤمنا، لاسيما وهو يصلى فى المسجد واقفا فيصمت ، وكأنه يقول إن الامامة شىء والصلاة شىء آخر، ذلك أننى أحيانا أراه أمامى بين صف الرجال وهو يحاول الصلاة معنا فيتطوح مرة فيسنده من بجانبه ويثبت أخرى وفقا لحالته الصحية والأدوية التى يتناولها.

ومن اليقين والتسليم عنده كراهته أن يتناول أحدهم سيرة أهل بيت الرسول بغير هيبة ولا خشوع، فقد كان أيام فتوته إذا سمع ذلك ينتفض ويستقيم هادرا بصوته الحاد: «هؤلاء آباء وأمهات المسلمين، فلا تتكلموا عنهم وكأنهم ناس عاديون».. أما مع تقدمه فى السن فقد صار يكشر عن وجهه ويوليه الجهة الأخرى رفضا للحوار، أما إذا قرأت استهلال كتبه فسيهولك هذا اليقين والتسليم، فيخيل إليك

أنك تقرأ لمراهق حديث عهد بالتدين يتحسس خطوه، ويستعين بالأدعية، اقرأ مثلا مقدمته للطبعة الثانية للمتنبي: «الحمد لله حمدا يبلغنى رضاه، وإن كان جهد الحمد لايفى بشكر نعمة واحدة من نعمه، اللهم تجاوز عن تقصيرى فى حمدك ومرضاتك، اللهم إنى فقير فاغننى، وضعيف فقونى، وحائر فسددنى، ومريض فاشفنى، وجاهل فعلمنى، وعاص مذنب فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم صل على محمد صلاة أزدلف بها إلى مغفرتك، وسلم عليه تسليما يحشرنى فى زمرة أوليائه ويدخلنى فى شفاعته يوم لا شفيع إلا بإذنك ، وصل اللهم على أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم واسماعيل، وعلى سائر المخلَصين من أنبيائك ورسلك، رب اغفر لى وارحمنى برحمتك التى وسعت كل شىء.»

وهو لايطيل التسليم فى استهلال كتبه بمعرفة أن القارىء متمهل بطبيعته، ويطيل بها إذا تكلم أمام حشد قلق لسماع الخطبة نفسها كما حدث فى الكلمة التى ألقاها عند تسلمه جائزة الملك فيصل العالمية، أو استهلاله لمحاضرته «فى الطريق الى حضارتنا».

أما المناسبة التى أكدت لى صدق يقينه واستسلامه فقد وافتنى وأنا أرافقه وأسرته فى رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة . لقد شاهدت كيف يتحول هذا المارد إلى طفل يرتجف من لقاء الله عز وجل ، بل كاد بكاؤه الطفولى يخرجنى من الانغماس فى هذا الجو

الإيماني، بل لقد خرجت منه بالفعل، عندما وزع أحدهم علينا - أو ل ما أحرمنا - أورادا نلبي بها، إذ وجدت الاستاذ محمود شاكر ما أن قرأها حتى جمعها من بين اصابعنا ثم شطب تلبية زائدة عن المتوجبّ.. ضحكت لأن دقة التذوق لم تغادره وسط بكائه وارتجافه.

أما ما أحزنني وأبكاني أني بعد طواف الاستقبال ، وقفت معه أتأمل طواف الملايين حول الكعبة المشرفة، فعن لي ، وكنت وشيكة استكمال معرفتي آتية إليه من وسط مخالف له ، أن أعبر عما أراه وكأنه مشهد بحكم ما تعودته في عملي ، وقلت: آه يا أستاذ محمود لو صاحَب هذا الطقس - أعني الجو - نوع من النداء او اللحن لاشك أنه سيصل لعنان السماء، ولم أكمل ملاحظتي حتى وجدت الاستاذ محمود شاكر يلتفت إلي رافعا كفه مرتعشا ساخطا : «طقس ياكافرة.. هل هذا «طقس» الكفرة الذين أتيت منهم ؟ إنها مناسك شريفة.. إنها.. إنها..» وقد كان سلوكه المفاجيء لي كضربة كرة في حائط.. حيث رددت عليه على الفور: هؤلاء أنتم عائلة شاكر .. ألم يصطدم أبوك مع الشيخ محمد عبده ؟!» عندئذ فقط هدأ ليقول لي إنهما ماتا صديقين..

وقد ظل طوال فترة الحج أشعث أغبر، لا يمد يده إلى شعره، ولا جبهته ينفض الغبار عنهما، وكان في كل مناسبات المناسك يشرح لنا اسبابها، وبعد أن أتممنا السعي بين الصفا والمروة.. وعدنا إلى منى للتحلل، لم يحلق فقط بل حلق لابنه «فهر» ولم يتجاوز

السادسة، وعندما توجهنا في اليوم التاسع من ذى الحجة الى جبل عرفات، تبعنا رجل لا نعرف مذهبه، استقر معنا فى خيمتنا، ولكن الأستاذ محمود شاكر أشار لنا بطرف عينه ألا نبادل هذا الغريب الحديث، ولكن سرعان ما أخرج الغريب من حقيبته صفحة جريدة سعودية وقدمها لرفيقنا الأستاذ جمعة ياسين وطلب إليه أن يقرأها.. وكانت قصيدة طويلة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ان أتم جمعة ياسين قراءتها طلب منه الغريب تفسيرها .. ولما كان تحذير الأستاذ محمود شاكر مستمرا .. فقد اعتذر جمعة عن عدم المناقشة بحجة أنه لايعرف المعانى، تعجب الغريب : كيف لاتعرف المعانى وانت لم تلحن فى حرف طوال قراءتك للقصيدة.. فرد عليه : هكذا أنا اعرف القراءة ولا أعرف المعانى، وتم كل هذا ونحن فى عجب من رفض الأستاذ محمود شاكر محاورة هذا الرجل، وفجأة أُذن لصلاة الظهر فقمنا وقام الغريب وراء الاستاذ محمود شاكر، ولكن الغريب سرعان مافتح عينيه فى الصلاة، ورأى محمود شاكر وقد ترك صدره عاريا، فما كان منه إلا أن ختم الصلاة واستل نفسه منه ثم اخذ خفه وخرج من الخيمة.. تم هذا كله وماقبله ونحن ذاهلون لا نعرف هذه اللغة الخفية المتبادلة بين علامتنا والغريب.. وبعد تمام الصلاة والدعاء شرح لنا أستاذنا محمود شاكر أن هذا الغريب الذى قال إنه مغربى وأستاذ جامعى ومجاور فى الحرم، إنما هو شيعى يريد لنا لا أن نتحاور بل أن نتجادل.. وقد

أمرنا الله أن نتعوذ من شتات الأمر فى هذا اليوم الكريم.. لأن «الحج عرفة» كما قال صلى الله عليه وسلم، ولأن الجدل منهى عنه فى الحج!

ومن بعد هذه الحادثة.. راح علامتنا فى كل مناسبة من المناسك يلفت نظرنا إلى أفعال أمثال الغريب الذى صحبناه فى عرفة.. ففى المدينة وعندما دخلنا إلى مسجد الرسول أخذنا نسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، لفتنى الأستاذ شاكر فسمعنا جماعة يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم بقولهم :«ياحامل الأذى بين جنبيك» وشرح لى أنهم يقصدون بالأذى - واستغفر الله - ابا بكر وعمر عليهما السلام.. لأنهما حجبا الخلافة عن سيدنا على.. اما عندما كنا نطوف طواف الوداع فقد لفتنى الأستاذ الى جمع منهم وقد تماسكوا بالأذرع والأرجل ووسطهم رجل يصلى على حجرة صغيرة وقال.. إن الصلاة بمحاذاة الكعبة حرام لأنه يعوق فى سير الحجاج والمعتمرين، وهاهم يخالفون السنة، أما هذا الحجر الذى يصلى عليه الرجل الذى يتحلقونه فهو، من كربلاء التى يعتبرونها أطهر من الكعبة رغم أنها بدعة ضلال!

ترى لو أننى أديت مناسك الحج مع غير أستاذى محمود شاكر، إذن لفاتنى كثير من ذخائر ما حزته من المعرفة والمدارك لاسيما عن الشيعة، لأننا بلد لم يعرف هذه النحل منذ عودة صلاح الدين وقضائه على الفاطميين فى مصر، وعودة الأزهر إلى تدريس المذهب السنى!

وكما يعاف الأستاذ شاكر الشيعة.. فإنه لا يقدر العلماء الذين يعتمدون فى بعض كتبهم على آراء المعتزلة، كما أنه لا يقر الصوفية لأن الإسلام دين حياة وإن كان لا ينكرها على المراهقين كمرحلة.

وبالإجمال يرى الأستاذ محمود شاكر أن الدين يكون قويا أو ضعيفاً، متهالكا هامدا أو حيا، حسب ما يعتقده أتباعه وما يحسونه ويشعرون به.

شاكر والحرية والثورة والالتزام

إن الأستاذ محمود شاكر لايرفض المادة والتاريخ ، ولايقف إلى جانب خصومهما حتى فيما يعارض روح الإسلام ومبادئه وجوهر دعوته كلها.. لكنه لايقف بجانب الظالمين فى مواجهة المظلومين.. ويحكى ابن أخيه فى مقالته عن عمه فى الكتاب التكريمى السابقة الإشارة إليه: «ذهبت إليه - فى ظل تأمل ما خلق الله - منتميا إلى إحدى الجماعات الدينية، فارتضى أشياء ولم ترضه أخرى، أهمها حكاية السمع والطاعة لأحد من خلق الله، فى ظل حماسة تنقصها الرؤية والنظر وتحصيل العلم بأمور ديننا ودنيانا الذى هو أساس لكل عمل صحيح».

«وكان أن ذهبت إليه مرة اخرى - بعدها بفترة - فى صورة من الفكر السياسى مناقضة تماما لما كنت عليه، ودخلت معه فى

مجادلات لا آخر لها، فيها كلها مايخالف رأيه وعقيدته وعلمه، ولكن ذلك لم يكن يغضبه، وإنما كان توجيهه أن على أن أقرأ وأعرف أولا قبل الاندفاع فى هذا التيار أو ذاك.. وبالمناسبة فالتيارات (المتطرفة) لدى الشباب عنده تصدر كلها من ينبوع واحد هو «الانفعال الشعرى» أكثر منه الدرس الصحيح، وأن امتلاك «أدوات التفكير» ـ على حد تعبيره ـ بالمعرفة، ينبغى ان يكون سابقا على تكوين الرأى او التعصب.

أما رأيه فى ثورة عام ١٩٥٢ ، فكان هو من أشد المتحمسين لإنجازاتها الاولى فى القضاء على حكم أسرة محمد على وطرد الاستعمار البريطانى ، وتحقيق العدل الاجتماعى ، عبر الإصلاح الزراعى، بل كان من رأيه أن هذا القانون كان شديد التساهل إزاء الطبقات المستغلة التى شكلها محمد على والإنجليز من خدمهم وأتباعهم وعملائهم وأعوانهم على قهر الشعب المصرى واستعباده.

وكان هذا الرأى من جانبه صدمة لفريق كبير من المتدينين من أصدقائه الذين كانوا يبدون حساسية مفرطة إزاء تلك الاجراءات ويحاولون أن يلصقوا بها تهمة (١) مخالفة الشرع، وانتهاك حق الملكية المقدس وأنها تفوح منها رائحة اليسارية المستهجنة لديهم،

---

(١) ألا يذكرنا ذلك بتوقيعه علي برنامج الحزب الوطني الجديد.. فتحي رضوان وتملك الدولة لمؤسسات الإنتاج.

لكنه استمر على رأيه وخطأهم طيلة فترة الصدام بينهم وبين السلطة.. حتى كانت الوقيعة الكبرى بين الفريقين وزُج بالساخطين - إخوان مسلمين وشيوعيين - فى السجون والمعتقلات ، ووصلته أنباء عما يدور فيها من وسائل التعذيب .. فكان له رأى آخر يجاهر به فى كل مجلس ولايخفى سخطه امام من كانوا يعتبرون «شخصيات مسئولة» فى الدولة، يحاصرهم باستنكاره لهذا الأسلوب فى معاملة المخالفين ، وأذكر بعض تعبيره فى الدفاع عن حرية الإنسان فى رأيه مهما يكن مخطئا، وأنه لاشىء يسوغ للحاكم أو لغيره أن يمتهن كرامة الانسان من حيث هو إنسان.. ولم يبال بأى نصيحة ليكف عن مهاجمة ماتفعله السلطة ، وتحذيره من مغبتها، وكان ان دخل السجن لأول مرة سنة ١٩٥٣، كما دخله مرة أخرى بعدأن نشر مقالاته المعارضة لفكر د. لويس عوض، حيث أغلقت الرسالة «الجديدة» سنة ١٩٦٥.

ويقول الأستاذ عبدالرحمن شاكر إن عمه قال له بعد خروجه من السجن أن نبأ الهزيمة قد دوخه حينما بلغه فى السجن حيث رأى الاستعمار يفعل بجمال عبدالناصر وحركته، مافعله من قبل بمحمد على وحركته، احتواها من الداخل ثم دمرها لمزيد من تدمير الامة ودفع ابنائها الى اليأس من كل شىء.

لذلك فهو يتشيع جدا للرئيس أنور السادات ، فهو الزعيم الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر ، يتشيع له ثم يقول: لقد رفع

الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ.. يتشيع له مع التسليم بمساوئ الانفتاح وتعاظم الرغائب عند المصريين، ولا ينكر الدوافع الوطنية للجماعة التي قتلته إلا أنه يؤكد أن المخابرات الأمريكية «C.I.A» كانت على علم بهم وسهلت أمرهم، لقد عمل العدو بكل الحيل على قتل بطلي حرب أكتوبر «السادات» و «فيصل» في عقري داريهما.. فيصل في حضن أسرته.. والسادات وسط أهله وجيشه..

وهذا.. وذاك.. يوضح أن محمود شاكر لا يقف إلى جانب الجمود والمحافظة والتقليد الكلاسيكي، الذي يصمه به أعداؤه وعلى حساب الحركة التي أمر بها الإسلام بتحصيل المصالح وتكملتها وتعطيل المفاسد وتقليلها.. ولن يتم لنا ذلك في رأيه إلا بالاجتهاد الذي تحوطه الضمائر اليقظة والنفوس الجسورة القادرة على التجديد بما يشد أزرنا في لحظتنا الراهنة هذه، ويقيني أن محمود شاكر هو الكاتب الذي حقق الالتزام ، سواء بمعناه العام أومعناه عند سارتر.. لقد كانت ساحة الأدب في وقته مليئة بالأسماء الرنانة.. ولم يكن أحد منهم مثله قادرا على أن يلتزم بهذه الطريقة وبهذا التجرد عن الغاية، في مجابهة الغزو الثقافي الغربي وصده عن حياتنا حتى ارتبطت العربية به وارتبط هو بها.

فبينما كان شابا من أسرة كريمة في رغد من العيش، ترفع عنه مطالب الحياة وشقوتها، يستطيع أن يحيا غرا هائما سابحا في

سماوات الفكر واللهو الصافى مع صحبة زملائة بالجامعة وبعدها يتخرج فيعين مدرسا.. أو يواصل البحث ليكون أستاذا فى الجامعة، لبحثه وترقيته وقت معلوم، نراه بدلا من ذلك يزج بنفسه فى معتركات مهلكة، اعتقد بتلقائية ما صادفه فى حياته أن يوجبها على نفسه.

فنراه حين عزم على البحث عن خلاصه ونجاة أمته، وقد حرس نفسه من أن ينفذ إليها ضعف يحول دون تفعيل طاقاته واستثمار كل حواسه وقواه، فجمعها حتى استطاع أن يهيىء لفكره فضاء هادئا مستريحا فيه بين آلاف من كتب أجداده سنة بعد أخرى ، نسى نفسه وزهرة عمره وسعادته وثرثرته حتى صار لا يعرف عن نفسه شيئا ، وإذ عن له يوما أن يتحسس ذقنه فذهب ليحلقها.. عندئذ رأى وجهه فى المرآة وقد تكلح.. فحدث ما حدث كبشر لابد أن تتسلل السآمة إلى نفسه من العمل المكرور .. ولكنه ارتد أكثر قوة وصلابة وواصل المسيرة حتى جاء منهجه فى مدة السنوات العشر هذه كعمل من الأعمال الخارقة، صحيح أنه ذكر طى منهجه أو «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» – أن الجبرتى الكبير قضى عشر سنوات ١١٤٤ حتى ١١٥٤ فى جمع كل العلوم التى كانت تراثا مستغلقا على أهل زمانه، وعكف عليها حتى ملك ناصية الرموز كلها، ولكن عصره ليس كعصر محمود شاكر حيث الشواغل الاجتماعية والسياسية تلهى العابد عن عبادته!

ومع ذلك الإرهاق، وبالرغم من كل هذه الكدمات نجد محمود شاكر

يصف هذه السنوات العشر بقوله: «وقد مضى الشباب وطوى بساطه، ومضت تلك الأيام الغوابر المضيئة فى حياتى حتى كان عام ١٩٣٥، وأنا فى السادسة والعشرين من عمرى حيث استوى المنهج واستبان»

ولكن هل وضع قلمه أو سيفه بعد ذلك واستراح؟

تعرفون أن ذلك لم يحدث إلى الآن.. مما يجعلنا نصفه بالثائر والمناضل الثقافى (١) فأنت حينما تقرأ له لا تجد ألفاظا على قرطاس، وإنما تحس بدم يتدفق ويترقرق أحمر قانيا ينبثق حارا فائرا لأنه عاش طوال حياته ممتشقا سيفه المهاب، كاشفا عن صدره لملاقاة أعدائة من المستشرقين والمتغربين من أمته مجابها إياهم ، ومبطلا دعواهم فى استحسان العامية على الفصحى أو كتابتها باللاتينية، شاجبا مناهجهم الفاسدة الفاشية، بغية تمزيق آخر عقدة فى الحبال والأسلاك التى أوثق بها الاستعمار جسد الأمة، وتبديد آخر سحابة سوداء تحجب سطوع الشمس عليها.

ثم ألم يصارح الكاتب محمد عودة عندما طلب منه الرفق بلويس عوض بأن غرضه ليس لويس وإنما هو الدفاع عن أمة برمتها (٢) ، «هى أمتى العربية، وقد جعلت طريقى إلى أن أهتك الاستار التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان، ورجال آخرون

---

(١) فتحي رضوان، «الأسلوب والرجل» الكتاب التكريمي.

(٢) مقدمة كتابة «أباطيل وأسمار» ، الكتاب التكريمي.

قد ورثوهم فى زماننا .. وهمهم جميعا كان : أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا و .و ..

ويقول عن مجابهة ذلك كله : «فصار حقا علىّ واجبا ألا أتلجلج أو أحجم أو أجمجم أو أدارى ، مادمت قد نصبت نفسى للدفاع عن أمتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وصار حقا واجبا أن أستخلص تجارب خمسين سنة من عمرى ، قضيتها قلقا حائرا ، أصارع فى نفسى آثار عدو خفى شديد النكاية، لم يلفتنى عن صراعه شىء ، منذ استحكمت قوتى، واستنارت بصيرتى و ... و ..»

ولكن هل نجح المناضل محمود شاكر بكل جهده البطولى الشاق المضنى والانتحارى فى أن يوقظ هذه الأمة العربية الإسلامية من غفوتها ، وأن يجعل الإنسان يتقن عمله حتى يصير أكثر سعادة ؟

لقد نجح فى أن يبلور عبر إنتاجه الفكرى تأليفا وتحقيقا .. رسالته إلى الناس .. حيث رأب صدوعا كثيرة نخرها فى الإرث العربى أصحاب الاستشراق وأصحاب الثقافات الغربية ، وحال دون هدفهم البعيد الغور فى انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا وأورث تلامذته - وهم كثر - على امتداد الساحة العربية والإسلامية - الشغف بالنظر فى الإرث العربى على أنه كتاب واحد ، بحيث لاينشغلون بعلم فيه عن علم ، مع تأكيده لهم على قراءة الشعر العربى ، وبخاصة الجاهلى منه لأنه أفصح كلام العرب، ولأنه مفتاح العربية كلها، كما علمهم ترك الثرثرة بالكلام الغامض والمصطلحات المبهمة التى يتشدق بها الأدباء فى مجالسهم

هذه الأيام، كما ركز فى تعليمهم أن يكون عملهم خالصا لمرضاة الله .. وأن يمضوا فى إذاعة ما تيسر لهم من الإرث العربى دون أن يطلبوا به نكرا عند النــــاس. مع تأكيده على الدقة والحذر فى التفسير عند القراءة (١) .

ولكن ظلت الأسمـاء التى عملت على انحراف العربيـة .. وروجت للتسطيح والتلخيص - كالدكتور طه حسين - والتى دخل بسببها عشرين معركة - تطن فى الآذان من كل جهات الإعلام الأربع، وكأنه أبو الهول الثانى لمصـر .. مما يجعلنا نصـدق أن أصحـاب الآراء الإبتداعية الخاطئة لهم حالات شهرة من الدرجة الأولى أما مكتشفو هذه الآراء ومصححوها ، فإن كلماتهم تذهب أدراج الرياح وسرعان ما يطويهم النسيان مع الزمن، وإن كان هذا لن يحدث فى مواجهة محمود شاكر - كما سنرى - بل إن ما روجوه تسطيحا وتلخيصا مازال يغطى الساحة الفكرية .. فالكسالى صاروا يرفضون التراث - بقدر أو بآخر - لأنه لايتفق وحداثتهم أو إطارهم الذهنى المحدد الآفاق بالغرب، والذى لايكلفهم الجهد المضنى ، والثقافة العربية الحقة ليست إلا الجهد الشاق المتعب ، بل لقد سمعت من أستاذ دكتور يشغل الآن . منصبا يحرك المجال الفكرى قولا أغرب من الخيـال ، إذ قـال بمناسبة الاهتمام بالتراث: «إذا كان إرث الأمة هو والدها .. فعلينا أن نقتله كما قتل «أوديب اليونانى أباه وتزوج من أمه» وإذا ناقشنا هذا القول العبثى

(١) من الغريب أن يذكر د. «زويل» - خبير الليزر - في العالم - أن الدقة في الابتداء هي التي كتبت له النجاح .

وكأنه قول معقول ، فسنجد أولا أن أوديب عندما قتل الملك لم يكن يعرف أنه أبوه ، ولم يكن يعرف أن قتله أبا الهول سيؤدى لزواجه من جوكستا - التى هى أمه - أو ارتقائه العربية، ولو عرف هذا ما أراده .

كان بوسع هذه الكلمات ومثيلاتها أن تجعل اليأس يتسلل إلى نفس محمود شاكر وتحيطه فيقوم بحرق مكتبته كما فعل أبو حيان التوحيدى إلا أن هذا لم يحدث لأنه أكثر تفاؤلا . بل إنه يبتسم لمثل هذه الأقوال وغيرها لأنه يعرف أكثر منها هولا، فقد كتب سنة ١٩٤٨(١) أنه يعلم أن بعض رجال السياسة عندنا لايعرفون إلى أين تمضى أهدافهم، وهم فوق ذلك قد لوثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لايمكن أن تؤدى إلى خير ، وهم أشربوا فتنة بأخلاق الطغاة التى امتحن بهم الغرب .

وهو (٢) يعلم أن بعض رجال العلم، من أى أقسامه كانوا ، لايزالون يتعبدون أنفسهم لكثير مما لانفع فيه لأممهم ، بل يبسطون ألسنتهم بسطا شديدا ، فيصفون شعوبهم بالفقر والجهل والمرض ، ثم يصرفون وجوهم إلى أوربا وأمريكا . كأنهم منها ومن صميمها .

ويعلم أيضا أن بعض أهل السلطان فى هذا الشرق لايزالون يعيشون فى عزلة لايبالون قليلا ولاكثيرا بما فيه خير بلادهم.. وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذائذ ، حتى لاتبالى أن تصب على أممها ضروبا من المظالم .

بل (٣) يعلم أن أهل الدين - إلا من رحم ربك وعصم - قد رعوا

---

(١) ، (٢) ، (٣) من مقال «لمن أكتب» المنشور بمجلة الرسالة سنة ١٩٤٨ .

بدينهم ظهريا ، وإن لبسوا لباسه وشبهوا على الناس وغروهم باسم الدين . وهم يأكلون باسم الدين نارا حامية .. وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

ومع كل هذا الفساد الذى عم جميع المجالات ينادى الكثيرون بالثورة الثقافية ولكننا نجد مفكرا كبيرا ، كالدكتور جمال حمدان ، ينادى فى كتابه «شخصية مصر» بأننا لانحتاج إلى ثورة فكرية ، وأخرى سياسية، وثالثة اجتماعية .. بقدر ما نحتاج إلى ثورة على أنفسنا .

أما أعمال شاكر جلها فتقول : إننا قوم لاتعوزنا الثورات والانقلابات وإنما يعوزنا الرجوع إلى أسلافنا . أعمالهم ورجالهم، وأخلاقهم ، حتى نواصل ماحققوه .

ملامح في نفس محمود شاكر

إذا كانت الأيام قد أنضجت محمود شاكر فكريا .. فدرس وألف ونقى وترك للتاريخ ثمرة حياته ورسالة عمره .. إلا أنها التهمت كل نضجه الوجدانى، وتذكرون أين كان فى العاشرة، والثالثة عشر، وفى وفى .. لذلك تراه وسط ظهرانينا طفلا مايزال في السادسة والثمانين، أو التسعين هجريا كما يَحلو له أو حين نتمنى لعمره أن يطول المائة بكثير جدا إن شاء الله .

نعم وأقولها عن معايشة ربع قرن .. إن محمود شاكر عندما يمسك القلم غير محمود شاكر وسط مريديه وأهله وعشيرته .. ففى بداية

معرفتي به مثلا كتلميذة سابقة للدكتور محمد مندور .. كان يغايظني مداعبا فينتقده قائلا : كان رحمه الله «يحرث في النقد كما يفلح الريفي في الحقل» .. فأجبته . ها أنت تحقق ماقاله عنك . فاستفهم؟ قال أنك كنت زميلة في الجامعة، ولكنك جننت في السنة الثانية .. بل إنك أنت المجنونة . ولاشك، ومع ذلك فإن محمود شاكر عندما أمسك القلم وكتب عن مندور .. تراه قد كتب عن صديق يجله ويحترمه يذكر ماله وما عليه.

ومن هنا أقول أن مثل هذا الرجل إذا صدرت منه أي هفوة عابرة سرعان ما أعيدها إلى طفولته الأبدية ، لأنه لو كان يحتد أو ينفعل عن سوء طوية ، لأثر ذلك في أعصابه ودمرها، وهذا لم يحدث بحمد الله ، بل انه الطفل يريد التفاحة سليمة وإلا رماها على طول ذراعه ، ومن هنا نستطيع أن نفسر اعتزاله المجتمع الذي حفظ كرامته وكرامة قلمه إلى غضبة الطفل إذا مس أحدهم متاعه الأثير، وكأنه يباهيهم بأنهم لم يحوزوا ماحازه من العلم .

تابعه هنا يودع حبيبته «التفاحة الكاملة» التي آلمه فراقها كثيرا ستجده لايبكي على أطلالها أو يروح ليدمن شيئا يلهيه عنها ، بل يرميها على طول ذراعه أو على حد تعبيره عن «الفرزدق»: كان فحلا من فحول الشعر ، كان ينفض الشعراء بلسانه نفض النداف ضريبة القطن، بعد ذلك يضعها على السفود» .. أو على الأصح يطبق على العلاقة منهجه التذوقي وكأنه نص ، يريد التبحر فيه ، وليس آدميا يجب أن يغفر له . اقرأ هذه القصيدة وهي بعنوان «لاتعودي» : .

لاتعودى أحرق الشك وجودى .. لاتعودى
اذهبى ما شئت أنى شئت فى دنيا الخلود (١)
واتركى النار التى أوقدتها تقضم عودى
هى بدر وسلام يتلظى فى برودى !!
فاأسعدى فى شقوة الروح ولكن لاتعودى

، و ، و

أنت والأقدار !!! كم قاسيت منهن ومنك
هى تأتى بيقين خائن فى إثر شك
ثم أنت الشك فى إثر يقين لم يخنك
وأنا سائلك الحيران عنهن وعنك
فأجيبى واذهبى إن شئت لكن لاتعودى
اللظى زادى !! فهل ينفعنى زاد مميت؟
اللظى روحك ؟ أم روحى سعير مستميت؟
كلما مرت به النسمة من وجدى حييت؟
أهى تحيينى إذا مرت بنارى أم تميت!!
خبرينى ، واذهبى إن شئت لكن لاتعوى

ويستمر الأستاذ محمود شاكر على طول ستة عشر مقطعا مختلفة يجيل النظر فى علاقته بهذه الحبيبة وما أشاعه هجرها ووداعه لها من ألم.

---

(١) تشي هذه اللفظة أن الحبيبة مبدعة .. تبحث عن الخلود .. فتفارقا.

وقد يتناول التكرار فى هذه القصيدة دارس لعلم النفس فيقول: إنها تدل بلاشك على أن صاحبها من أولئك الشخصيات الحوارية .. أولئك الذين ينظمون الحياة وفق مشيئتهم ، بحيث أن أى اختلال ولو كان بسيطا لأدى هذا الاختلال التنظيمى إلى إثارة القلق ، لأنهم مرتبطون بالقواعد ، القاعدة عندهم مقدسة، يا ويل من يخرج عنها أو عليها، لأنها حماية وأمانة عندهم ضد القلق والاضطراب .

وهنا أتذكر قول الدكتور عبد الصبور من أنه عندما ترجم كتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى - وكان مهندسا كهربائيا اشتغل بالفلسفة - خاف من أن يخالف المؤلف فى رواية النصوص فكان يترجمها كما هى على مسئولية المؤلف ، وعندما ذهب يهديها إلى الأستاذ محمود شاكر - وهو صديق للمؤلف - وتصفحها وتمعن فى بعض صفحاتها ، التفت إلى وشوانى شيا على السفود - كما يقولون طيلة ثمانى ساعات من الظهر إلى ما بعد العشاء.. علمنى فيها أن على المترجم أن ينقل النص بالعربية التى تليق وليس بالعربية التى تحاكى النص الفرنسى، فهذا نمط من الحرفية يضر أكثر مما ينفع بحيث تستعبدنا النصوص التى يرويها المستشرقون ومن لف لفهم، فإذا كانوا يتكلمون عن آيات قرآنية أو أحاديث نبوية فينبغى أن نتتبع هذه النصوص فى مظانها وأن نحققها ، وأن نأتى منها بالصحيح وأما الخبيث فننفيه أو نعلق عليه .

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين فى حديث إذاعى أنه بعد هذه

الجلسة قام متوجها إلى بيته : «وحملت فى تلك الليلة صحائفى تحت إبطى كأنما أحمل خيبتى تحت ذراعى ، وأنا أبكى من مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى - تخيلى : يقول للمذيعة - وسرت فى تلك الليلة وحدى لا أدرى بالطريق من الدوامة التى لفتنى، وشوانى، وأقول شوانى شيا مازالت أشعر بآثاره حتى الآن» .

ويردف الدكتور عبد الصبور فيقول : «ثم عدت إليه بترجمة أخرى لكتاب الظاهرة القرآنية .. والتى ترجمتها طبقا لمنهج الأستاذ محمود شاكر فشرفها بأن كتب لها مقدمة ، مع أنه ضنين فى كتابته لهذه المقدمات ».. أى أن شاكر غفر له وصالحه .

وإذا كان الدكتور عبد الصبور وصف عنف كلام محمود شاكر عليه بأنه سار باكيا فى الطريق بين مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى .. فإن آخر كان نائبا لرئيس الجمهورية أرجع سبب استقالته من هذا المنصب بسبب عنف كلام محمود شاكر ، فقد حكى الأستاذ حسن الباقورى (١) : «لقد استدعانى عبد الناصر وأسمعنى تسجيلا لأحد أصدقائى المقربين والتسجيل بصوته يتحدث مع الأستاذ يحيى حقى ، الذى يبلغه أن عبد الناصر رفض الوساطة له بأن يبقى سفيرا ، فرد عليه محمود شاكر بالقولة المعروفة : يمتحن الحر بأبناء « .....» ولما كانت المخابرات قد قوى جناحها وصارت تتجسس على الأماكن التى يتردد

(١) كتاب «ثائر تحت العمامة» لنعم الباز، الهيئة العامة للكتاب .

عليها الوزراء ، فقد اعتبروا أن التعبير الذى استعمله محمود شاكر كان يسب عبد الناصر فى عرضه وحينما استنكر يحيى حقى هذا الأسلوب منه قال له محمود شاكر: «جبان وخائف من عبد الناصر .. والشيخ الباقورى جنبى أهو سامعنى»، وكنت أصلى وعندما فرغت كانت المكالمة قد انتهت .. فقلت له يا أخى ذلك عيب ولايصح، ولكن التسجيل قد انتهى، ثم ذهب الى بيته ومكث فيه لايغادره خمس سنوات وخمسة شهور وخمسة أيام .

وأذكر من قبل هذه الأحداث أننى كنت يوما فى طريقى للأستاذ محمود شاكر فقابلت الدكتور عبد الغفار مكاوى، فعرضت عليه أن يصحبنى .. فرد معتذرا : هل أذهب إلى من جعلنى أخاف الإمساك بالقلم لمدة سنتين ؟ ولذلك ما يبرره فقد كتب الدكتور عبد الغفار مكاوى لمجلة «المجلة» عن الشاعر الألمانى جوتة - كما ألمحنا - : أما الخطأ الذى وقع فيه الدكتور عبد الغفار عندما ذكر قصيدة الشاعر العربى «تأبط شرا» التى تأثر بها جوتة ، فقد ترجمها عن الألمانية ولم يرجع الى النص الأصلى العربى للقصيدة مع هفوات فى الترجمة : ورغم اعتذار الأستاذ يحيى حقى - الذى كان رئيس تحرير مجلة المجلة وقتئذ - إلا أن الأستاذ محمود شاكر كتب أربع مقالات شديدة اللهجة أحزنت الدكتور عبد الغفار حتى أنه فكر فى اعتزال الكتابة .

وعندما وصلت إلى بيت الأستاذ محمود شاكر حدثته عمن قابلته فقال لى :

إنه – أى الدكتور عبد الغفار – رجل طيب .. ألا يعرف المثل القائل: «داوني بالتي كانت هي الداء» وقد نقلت هذا إلى الدكتور عبد الغفار فوافق على ذلك .

وعندما سألته : لم لم تأت معي يوم الجمعة الذى قابلتك فيه ؟ «قال: الحق أن أصدقاء لي ألمان كانوا يزورون مصر ، فأردت أن أطلعهم على المتحف الإسلامي، ولكنه كان مغلقا فقد كان يوم جمعة» .. ولما أفضيت إلى الأستاذ محمود شاكر بما حدث . فقال : «إن هذا يثبت مأخذى على هفواته .. فهو رجل نَسَّاء بجانب طيبته .. وهذا غفران آخر» .

يومها همسته لأقرب زميل لي فى الجلسة وكان الشاعر حسانى حسن عبد الله : وهل يتسع صدر محمود شاكر ويتسامح ليشمل أحد الرجال كالأستاذ عبد الله القصيمي الذى كتب عن العرب كتابا ضخما مضمونه وعنوانه «العرب ظاهرة صوتية» ؟ فقد هيىء أن المقابلة ستنتج عنها نافورة من الشرر تسقط شظايا علينا جميعا فنهاني حسانى عن محاولة تحقيق مثل هذا اللقاء ، والذى لن يتم ، وكانت حدة رد حسانى ملفتة لنظر الأستاذ محمود شاكر فسأل حسانى عما كنت أهمس به إليه، فأفصح بوجل عما كنت أعتزمه ، ومن العجب أن الأستاذ التفت إليَّ قائلا : «ولماذا لا تصحبيه معك يوما ، إنه رجل فاضل كتب أعظم كتاب عن الشيعة» قلت لنفسي : يبدو أن الأستاذ محمود شاكر – ويا للعجب – لم يطلع على التطورات التى حدثت فى أفكار الأستاذ القصيمي والتى أفضت به إلى أن يصدر كتابات متطرفة مخالفة لما ورد

فى كتابه عن الشيعة .. حتى أن المجلات التى تنشر مقالاته تمنع من الدخول الى البلاد العربية .. وفكرت أن أصطحب الأستاذ القصيمى يوما إلى منزل شاكر فأحظى بلقاء تاريخى مشهود بينهما .

ولأن جلسة الأستاذ القصيمى - وهو جارى فى السكن - تكون يوم الجمعة ، فقد انتهزت فرصة وجود الأستاذ محمود شاكر فى المغرب لقضاء فترة النقاهة بعد إجراء عملية جراحية لعينه فى أسبانيا . عند الطبيب المشهور «باركير» بعد أن أرهقت عيناه من طول القراءة والتحصيل، ثم من المغرب الى أسبانيا لاستكمال العلاج .

اتصلت بالأستاذ القصيمى لأعلمه بأنى سوف أزوره يوم الجمعة الآتى ، وبالفعل ذهبت إليه ، فبادرنى : ما هو سبب حضورك بعد طول انقطاع من سنة ١٩٦٩/١٩٨٢ وقبل أن أجيبه ، فاجأنى قائلا: إياك إياك أن يكون حضورك لتحقيق غرضك فى ارتطامى بالأستاذ محمود شاكر .. دهشت لذلك واحترت فى كيفية معرفته لذلك ، ثم تذكرت أننى كتبت عن هذه الأمنية فى مقال ، ثم أردف الأستاذ القصيمى : لقد أتى أصحابى بمقالك المنشور بمجلة الدوحة القطرية .. وقد حذرنى عالم سعودى جليل هو صديقى وصديق الأستاذ محمود شاكر قائلا : احذر أن تقودك عايدة لهذا الصدام الذى لن تتحملاه ، معا على أرض واحدة يعد ضربا من المستحيل وإن المكان الوحيد لوجودكما كما معا هو اللقاء على الورق .

عند ذلك ابتسمت لأن مقالى وجد أذنا مصغية ، وكففت عن أى طلب

وأخذت أتحاور مع جلساء ندوته فوجدت لحوارهم طعما مختلفا عما كان من قبل ، فلقد كنت أشعر بذوبان هشاشة حلاوة «غزل البنات» فى فمى وابتسم عندما كان يشتطوا فى الحديث عن المقدسات .. أما فى جلستى هذه فكنت أشعر بالغضب والضيق فأعارض وأدافع بحدة عن المقدسات مما دعا أحد الجلساء - وهو من اليمن الجنوبى - أن يقول : الظاهر أن الكويت ثبتت إيمانك - وكنت وقتها عائدة من الكويت حيث كنت أعمل - لكن الأستاذ القصيمى قال: بل إن أستاذها محمود شاكر وراء ذلك .

وعندما نقلت مادار فى الزيارة إلى الأستاذ محمود شاكر بعد عودته من العلاج ، نهانى عما كنت أحاول تنفيذه ، لأنه تأكد من تحول الأستاذ القصيمى نهائيا عن كتاباته القديمة، فكان الرفض من الجانبين.

واذا كنت لم أحقق هذا المطلب لنفسي.. فقد حققت مطلبا آخر أكثر منه صعوبة .. فقد كنت قد عاهدت نفسى أن أزور الشاعر عبد الرحمن صدقى بعد انفضاض من كانوا حول كرسيه - كل يوم أحد بمصر الجديدة - فقد حدثت حوائل عن أن أزوره فترة، وعندما زرته يوم جمعة وأنا فى طريقى للأستاذ محمود شاكر استقبلنى متهللا وهو يقول: «والله لقد أنقذت حياتى من الموت يا عايده.. لقد خلت أنك أيضا قد قاطعتنى».. قالها وشاب صوته نبرة حزن عميق تنبئ بتحرقة فى وحدته، فتأسفت وعرضت أن أخرجه من هذه الوحدة بأن يصحبنى إلى الأستاذ محمود شاكر، فتردد فترة قبل أن يقول لى: ليس قبل أن تعلميه بذلك، أو

تبقى معى، لم أعرف سبب ذلك، فاتصلت بالأستاذ محمود شاكر أعلمه بأنى سأقضى اليوم مع صدقى وزوجته، ولكن محمود شاكر رد بعفوية وطفولته: «ولماذا لا يتفضل هو بزيارتى» .. وكان .. وكانت جلسة شيقة للطرفين.

ولما هبط المصعد بالأستاذ صدقى مغادرا منزل شاكر .. التفت أنا إلى الأستاذ محمود شاكر قائلة: إن الأستاذ صدقى كان متخوفا من زيارتك، فقال: أعرف ذلك ومتأكد منه.. فسألته: لماذا؟ قال: إن لهذا تاريخا، فعندما عملت كمدير لتحرير مجلة المختار «ريدرزدايجست» كان على أن أكثف أطول ترجمة مقال إلى صفحة أو صفحتين على الأكثر، وعندما فعلت ذلك بترجمة الأستاذ صدقى ثار وأربد وسأل عمن فعل ذلك.. وحين عرف شتمنى.. وهو متأكد أن هذا كله قد وصلنى.

أما عندما اصطحبنا - صدقى وأنا - صديقه الكاتب المترجم الكبير على أدهم، وكان لدى الأستاذ محمود شاكر صديقه التليد يحيى حقى - أو جاء بعدنا لا أتذكر- فحدث أن تكلمنا فى موضوعات شتى طالت أربعة أقران ثقافتهم واهتماماتهم المتباينة، وفجأة توقف الحديث عند جمال الدين الأفغانى، فقد كان لويس عوض ينشر هجوما عنه بالأهرام ، وجدتهم كلهم يتعجبون من غموض هذه الشخصية، قال يحيى حقى - على ما أذكر - أن هذا الرجل نزل إلى بلاد شتى..

فرنسا ، تركيا، روسيا، إنجلترا، ومصر.. وفى كل مرة كان سكنه هو «الجيتو» أو حارة اليهود و«الخرنفش» فى مصر،» ثم استدرك صدقى قائلا: بل إن مذكرات ابن أخيه - أو أخته - عنه ذكر أن هناك شهرين فى السنة كان يغيب فيهما الأفغانى عن خريطة الوجود المعروف لدى عارفيه، وبعده نوه الأستاذ على أدهم إلى ماسونيته، وأنه كان - ربما - عميلا صهيونيا ثم دلل على ذلك بأن السلطان عبد الحميد لم يضع له السم فى علاج أسنانه إلا بعد أن عرف بصلته «بهرتزل» و.و... وأخيرا قال شاكر : لماذا تحتارون وتتلمسون .. سأريحكم وأذكر لكم أن الأفغانى والشيخ محمد عبده أغريا والدى بالانتساب إلى الماسونية ورفض وقاطعهما فى الوقت الذى يرى البعض أن الأفغانى ومحمد عبده استهوتهما الماسونية فى البداية من زاوية مظاهرها الأخلاقية والتطوعية لفعل الخير، وعندما اكتشفا مراميها البعيدة والخبيثة انفضا عنها!

قلت - مشاكسة - الأستاذ محمود شاكر : أخيرا تلاقت آراؤك مع آراء لويس عوض .. فقال: لا لم تتلاق، فأنا أذكر ماسونية الأفغانى الحقيقة.. وهو يذكر الأفغانى بسوء ولحساب الجنرال يعقوب، وقد يستمهلنى أحدهم ويسأل: ها أنت تذكرين من وقعوا ومن نجوا من مراجعات شاكر ولا تذكرين ما حدث معك.. رغم أنك أفصحت أنك هدمت جدار الغربة سريعا بينك وبينه .. بل أنك كنت تشاكسين أيضا.

وأقول: لقد تحملت كثيرا لدرجة أننى فكرت أكثر من مرة أن أتوقف عن زيارتى له وان أكتفى بقراءة ما يكتبه كما كنت أفعل قبل تعرفى به، وعندما كنت أحاول ذلك، كان دائما يسترضينى فأعود مرة أخرى.

وكان وقع كلامى عليه يختلف تبعا للحاضرين الذين يتصادف وجودهم فى لحظات المشاكسة، فإن كانوا ممن يرتاح لهم ويحبهم فإنه يكون متسامحا جدا معى إذا كانت مشاكستى له من قبل الاقتصاص الضاحك لهم وكانوا ممن راجعهم يوما، أما إن كان بين الحضور من لا يرتاح لهم .. كما حدث يوم أن شاكست قولة الأستاذ «يحيى حقى» بأنه تعلم من الأستاذ محمود شاكر سليقة اللغة العربية و.. و.. حيث زل لسانى بأن الأستاذ شاكر لا يعرف كثيرا من معارف يحيى ، يومها كتم غيظه إلى أن ترك هؤلاء المجلس فالتفت إلىَّ ليعاتبنى مرة ثم يقلب الأمر على وجه آخر فيعاتبنى مرة ثانية، وثالثة ورابعة حين أستقل العربة وهو يوصلنى مع أسرته، وأخرى عندما أودعه لأدخل بيتى، ثم يتصل بى فى اليوم التالى ليقول إن يحيى علمنى الكثير ولكنى نسيته، أى أنه صالحنى.

بعد هذا لم يعد فى استطاعتى البعد عنه وعن مجالسه، لأن تكرار مغاضبته وتكرار إرضائه لى، قد أبانا عن جوهره الثمين، ولم يكن تعنيفه لى بهدف إغضابى ولكنه يتمثل فى عبارة كتبها يوما: أن

من يخـوفك حـتى تلقى الأمـن أشـفق عليك ممن يؤمنك حـتى تلقى الخوف!

إن غضبه الثائر لم يكن إلا قشرة خفيفة تخفى تحتها روحا متسامحة وطيبة عميقة لاحد لها، وأتمنى من كل قلبى أن أعرف كل من نقدهم بطبعه الحقيقى، وهو الغفران الذى لا نهاية له، والذى يود به أن يصالح كل من نقدهم ويطيب خاطرهم ويمسح أثر كلامه باحتضانهم.. وما أقول ذلك تبريرا لعدم القدرة على مقاطعته بل أقوله عن تجربة عايشتها.

ذلك أنه فى يوم من أيام عيد ميلاده «عاشوراء» حيث يجتمع حوله تلاميذه ومريدوه وأصدقاؤه وعائلته.. هذا يلقى كلمة وهذا ينشد قصيدة، جاء على لسان أحد الحاضرين الحديث عن التلاميذ الذين قاطعوا صاحب الحفل.. فما كان من الأستاذ محمود شاكر إلا أن بكى بحرقة، لأنهم لم يفهموا طيبة قلبه عندما كان يغلف إرشاداته لهم بالعنف.

وربما تذكر الأستاذ محمود شاكر فى هذه اللحظة، مقاطعة تلميذه الأثير ناصر الدين الأسد يوم أثبت مغاضبته لأستاذه فى كلمته للكتاب التكريمى[1] حيث قال: «والمسارعة إلى الارتياب فى الناس، والحدة فى الطبع، وعنف القول شأنان عرفناهما فى هذا العالم الجليل، فقد كانت

---

(١) كتابات «دراسات عربية وإسلامية، مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر «محمود محمد شاكر» بمناسبة بلوغه السبعين، مطبعة المدنى القاهرة ١٤٠٣هـ /١٩٨٢م.

تشن علينا من حيث لم نكن نحتسب، وما أكثر ما كنا نطلب رضاه فى أمر فإذا هذا الأمر يصبح ذاته مبعث سخطه حتى إذا ما سخط هاج عظيما لا يترك أحدا ينجو منه حتى أقرب الناس إليه وأعزهم لديه، فيحطم كل وشيجة، ويدمر كل صلة».

ورغم أن الدكتور ناصر وضح أنه «إنما ذكرت ما ذكرت وأطنبت فيه لأفسر جوانب من صفات هذا العالم الجليل والتى كانت سببا فى أنه لم يغن المكتبة العربية بما كان يتوقع ممن كان فى مثل علمه، وسببا فى توقفه عن إكمال ما بدأه من كتب وبحوث: فكثيرا ما كان يركبه حران يمسكه عن المضى فيما كان شرع فيه فيتخلف، وقد كان السابق، ويسيطر عليه ما يجعله يبطئ به عن الشروع فيما كان حقه الشروع فيه، وكان يستبد به هاجس ارتياب فى الناس وعلاقتهم به .. يتدرج به من مرحلة إلى مرحلة حتى يفضى به إلى رفض كل ما يقترحونه ويعرضون عليه أو يشيرون به من قيامه بعمل علمى أو نشرهم له، إلى أن أصبح فى السنوات الأخيرة يستقل وحده بالأعمال كلها، فهو المؤلف أو المحقق، وهو الطابع بمطابع خاصة، وليست بدور نشر، وهو الموزع لما يطبع مستعينا بأصدقائه وتلاميذه فى بعض الأقطار العربية».

حزن محمود شاكر من هذه الكلمات التى قفزت من تحت سن قلم تلميذه الأثير ورفعها من النشر فى الكتاب التكريمى، ضاربا بكل ما جاء بها من حسنات مثل قولة الدكتور ناصر: وعلى ذلك فإن ما أصدره

هذا العالم الجليل من نفيس النتاج، شرحا وتحقيقا وتأليفا، ليعد ذخيرة عظيمة حقا من حيث عددها ومن حيث قيمتها على مدى خمسين عاما متواصلة منذ نشر عام ١٩٣٠ فصلا من كتاب «الأم» للشافعى فى جريدة البلاغ و.. و...

وربما نجد ما يساند هذا الكلام عن الحدة فى محمود شاكر فى كلام صديقه فتحى رضوان وصفيه الدكتور محمود الطناحى.. وإن كان قد بررها كل من وجهة نظره.

فالأستاذ فتحى رضوان عرف الخطوط الرئيسية فى شخص محمود شاكر بأنه: «أولا صعيدى.. ثم مصرى ، ثم عربى، ثم مسلم، وعلى ذلك تكون «خاصية الغضب النفسية والخلقية التى تبرز من بين خصائصه وصفاته الأخرى، هى رد فعل صادق ومباشر لهذه الانتماءات، فهو يتقلب على مثل الجمر، لما يراه من مظاهر الضعف والانحلال، والهزيمة والاستسلام، الجهل والادعاء فى الأركان التى تقوم عليها حياة أهله وقومه، وأخذ الأمور كلها - ما دامت تهمه وتحرك وجدانه - بالشدة والصراحة والصرامة، إلى حد الإيلام أحيانا . ولكنك لا تخطئ فى جميع الظروف طيبته وبساطته وربما سذاجته».. وأقول أنا: «وطفولته».

أما صديقه الدكتور محمود الطناحى[١] فقال: «ودعوى حدة

(١) كتاب الدكتور محمود الطناحى «مدخل إلى نشر التراث، وقد ألمحنا إليه من قبل.

الأستاذ ويأسه وتعاليه من الكذب الخبيث. ولقد عرفت هذا الإمام الكبير وخالطته فى غضبه ورضاه سبعة عشر عاما - ظهر الكتاب ١٩٨٤- كنت خلالها قريبا منه جدا، وأشهد أننى ما رأيت مثله، فى صفاء نفس، ونقاء قلب.. تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأوراقها عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم و.. و.. وأعود إلى تلك الحدة الكاذبة المزعومة، فأقول نعم.. إن فى شيخنا حدة، ولكنها تظهر منه إذا انتهك حد من حدود العلم، فهى الحدة التى جاءت فى الحديث الشريف، «الحدة تعترى خيار أمتى» وقال مجد الدين بن الأثير: الحدة كالنشاط والسرعة فى الأمور والمضاء فيها، مأخوذة من حد السيف والمراد بالحدة هنا المضاء فى الدين والصلابة والقصد فى الخير ومنه الحديث «خيار أمتى أحداؤها» وهو جمع حديد «شديد وأشداء» و.. و.. ومهما يكن من أمر فقد حارب الأستاذ محمود شاكر، فى جبهات كثيرة، كما رأيت وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها.. وكان ما كان من إقصائه من محافل الأدب وعضوية المجامع، ومؤتمرات الفكر، وبريق الجوائز، فلم يزده ذلك إلا إصرارا وثباتا، ووقف وحده فى ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرقب الزيف، ويرصده، ويدل عليه، ولم يجد خصومه وأعداؤه فى آخر الشوط إلا أن ينفروا الشباب عنه، ويبغضوه إليهم ، بما أشاعوا عنه من

حدته وبأسه وتعاليه، فنكص من نكص مسيئا فى نكوصه وثبت من ثبت محسنا فى ثباته.

على أنه رغم بلوغه الرجولة الكاملة - أى التعادل الذى ينسيه كل الأفكار المؤلمة - ورغم تقدمه فى تجربة الحياة.. وخبراته وإنتاجه الذى عم وطف.. ورغم أنه صالح الدكتور طه حسين كما أورد فى كتبه بل إن الدكتور طه هو الذى رشحه لعضوية المجمع... وكأن المرارة التى تخلفت فى نفسه من هذه التجربة كانت من القوة بحيث لم تفلح كل نجاحاته فى محوها من نفسه.. محققا بذلك ما قاله الأستاذ النجمى أن غضبته مع طه حسين.. تفسر ما كتبه أو قاله أو عمله طوال حياته الأدبية المريرة الوارفة الظلال، فهو حين أدرك أن ميول ابنه فى الالتحاق بكلية الآداب قسم اللغة العربية - التى كان طالبا فيها من قبل - علمية كأبيه فى سنه . لكن انزعج لذلك.. فرضخ الابن إلى رغبة أبيه، بل إن الأستاذ محمود شاكر أخذ يشجعه على التفوق حتى كان الطالب الوحيد بقسم الامتياز.. وأعفاه هذا من المرور بمرحلة الدبلوم التمهيدى للماچستير.. فكان وقتها أصغر المعيدين سنا بهذا القسم.. وكأن محمود شاكر يقول للدكتور طه .. ها هو بضعة منى يفوق كل دفعته فى التخرج.

ويوم أن هيأ القسم الأول «سيمنار» أو محاضرة يلقيها فهر على الأساتذة والمعيدين، عن «الأسطورة فى الشعر الجاهلى» صالح محمود شاكر» جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - بعد أكثر من ستين عاما

سنة ١٩٨٩، يومها خرج بعد أن استمع إلى فهر منتشيا فخورا ودودا.. فقد أدرك أن غرسه الإنسانى والثقافى قد أينع فها هو ابنه فهر يخطو أولى درجات البحث الأدبى الشاق بقدمين ثابتتين.

فى هذه اللحظات كان الأساتذة - بعد أن فرغوا من الإبن - قد تحلقوا حول الأب سائلين إياه عن شعوره وهو داخل الجامعة مرة أخرى بعد فراق زاد على ستين عاما، منذ ١٩٢٨ «إثر احتدام الخلاف بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين».

وربما لأن هذه الذكريات.. وتلك الواقعة على وجه التحديد كانت توجع مشاعره.. فقد أخذ يسوف فى الإجابة - على عادته - عندما لا تكون محببة إلى نفسه أو لا تنسجم مع حالته النفسية، أو لأنه يعف عن خوض مسأله خاضها من قبل مرارا وتكرارا، فهو تارة يتطلع إلى أبهاء الجامعة ثم يقطع انتظار الإجابة عن السؤال الذى يحاصره، بقوله: «لم يكن عالمى بالأمس على ما هو عليه عالمكم اليوم».. ينظر إلى أبهاء جامعة القاهرة - الآن - من حوله ثم يواصل حديثه عن عالمه هو: «كانت كلية الآداب التى درست فيها هى قصر الزعفران التى تحولت من بعد إلى مقر إدارة جامعة عين شمس. وكان الملك فؤاد الأول قد أخلى هذا القصر ضمن عديد من قصور أسرة محمد على لاستيعاب كليات الجامعة التى حملت اسمه».

ويحاول أحد الأساتذة أن يستنهض ذكريات الأستاذ شاكر حول الجامعة، وأنها كانت قد تبرعت بها الأميرة فاطمة إحدى أميرات الأسرة

المالكة، لكنه لا يستجيب لنداء الذكريات بل يذكره اسم فاطمة بابنته زلفى، فيبحث عنها بعينيه وسط الحاضرين حتى يجدها، فيقدمها إلى الجميع: «هذه ابنتى زلفى التى ستنتهى دراستها بكلية التجارة».

سأله أستاذ آخر فى دهشة: «كنا نظنك لفهر فحسب، لأنك توقع على معظم كتبك بأبى فهر وكأنه وحيدك».

هكذا حاول الأساتذة أن يستحثوا ذكرياته وهو يدخل الجامعة لأول مرة فى أعقاب خلافه مع الدكتور طه حسين.. وحين أدرك أخيرا أنه محاصر ولا سبيل للمراوغة عندئذ قال: «باديً ذى بدء أود التأكيد على أن خلافى مع الدكتور طه حسين شئ.. ودخول فهر كلية الآداب شئ آخر فقد قلت لفهر الذى يعلم عن هذه الحادثة. ويقرأ عنها كثيرا: إنك ما دمت قد ارتضيت الجلوس إلى مقاعد الدرس فلابد أن تحترم أساتذتك وتجلهم، وتستمع إليهم وتناقشهم بالحسنى.. وللعلم فإنى رغم خلافى الشديد مع طه حسين لم أشعل يوما سيجارة فى حضرته.. ولا وضعت ساقا فوق ساق وأنا جالس أكلمه فى أى موضوع بعد ذلك».

وعندما سأله الدكتور «عبد المنعم تليمة: » هل تنصح «فهر» ألا يأخذ عنى شيئا لاختلافنا البين فى الاتجاهات السياسية والفكرية، عندئذ تأبطه الأستاذ شاكر فى حنو قائلا: أبدا، أبدا يا تليمه.. وتعال أعرفك بابن أخى عبد الرحمن شاكر.. رغم أنه على مذهبك.

تهلل الدكتور عبد المحسن بدر موافقا: أنا متأكد أننى على الرغم

من اختلافى فكريا مع الأستاذ شاكر إلا أنه عندما سيكتب عنى فلن يذكرنى إلا بالخير، فرد علامتنا: «لأنك دائما صادق مع ما وصلت إليه».. ثم شكا الدكتور عبد المحسن للأستاذ شاكر الطلبة وتقاعسهم عن التحصيل كلما حل وقت تخرجهم.. وذلك لأنهم يعرفون ما ينتظرهم من مشاكل فى التعيين .. ثم قلة العائد الذى لا يمكنهم من تحقيق آمالهم وطموحاتهم حيث لا يتمكنون من مواجهة غلاء المعيشة، ثم حيرة المعيدين بين السفر الذى يخلى بينهم وبين إتمام رسائلهم.. وعدم الإستقرار الذى يؤجل محاولتهم لتكوين أسرة .. ثم يخبره كيف أنه يسقط فى يده وهو ينصحهم .. فهو يجد نفسه غير قادر على استبقائهم لمعرفته أن البحث عن لقمة العيش أصبح أكثر إلحاحا من التفرغ للعلم.

أجاب شاكر: «إن كلامك عن حيرة المعيدين، بين السفر والبقاء كشفت وأجابت على مشكلة تؤرقنى بالفعل، عندما أسمع آسفا عن أساتذة بالجامعة يعطون لتلامذتهم دروسا خصوصية، أو يبيعون كتبهم ويغيرونها كل عام حتى يباع أكبر قدر منها - وأعتبره عيبا فادحا، رغم ظروف الضنك التى نمر بها.. لأن المدرس لابد أن يتبتل فى العلم وأن من يعطى الدرس أو يبيع الكتاب فهو يحط من منزلته وكأنه يبيع نفسه لطلبته فلن يحترموه أبدا..

بعد هذه المحاورات والمداعبات.. ودع الأساتذة محمود شاكر، الذى سار نحو عربة فهر ، وكأنه يمتطى السحاب مقرور النفس والروح.. حتى تمنيت فى هذه اللحظات أن تشرف جامعة القاهرة بإهداء الأستاذ

محمود شاكر الدكتوراه الفخرية كما كتب الأستاذ سامح كريم، يوم شاعت فكرة إهداء محمود شاكر الدكتوراه الفخرية بعد حصول الأستاذ يحيى حقى عليها من جامعة «المنيا».. لأن جامعة القاهرة وليست المنيا هى وحدها القادرة على مصالحة محمود شاكر على نفسه.. ففى قاعاتها ضاق صدره بالجامعة كلها ومل على أثرها المقام فى وطنه لكنه كان فى قمة الرضا والسعادة عندما حصل ابنه فهر على درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة.

هذا هو محمود شاكر كما عرفته.. ولو كان قد أدلى إلىَّ ببعض دخائل نفسه وأسراره لكان عملى أكثر نضارة.. وأقصر سردا .. وأحسب فى النهاية أن كتابا واحدا لا يستطيع أن يغطى هذه الشخصية الثرية من أطرافها حتى لأقول مع الأستاذ حمد القيسى : «فليس أبو فهر ممن يقدر عمره بالأعوام حين تزول وأن عمره مالا يزول إن زالت، وليس أبو فهر ممن تقوم حياته بأوراق التقويم حين تبلى، وإن فى حياته مالا يبلى أن يلبث، وإنما تحسب بما فيها من معانى العلم والحكمة ونواحى الفضل والهمة.. وهى صفات لا يستوى فيها من يستوون بالأعوام والسنين».

ربما لاحظتم أننا فى الكتابة عن محمود شاكر لم نلجأ إلى أسطورة تروى عن حياته، ذلك أن تصرفاته وسلوكه ومتاعة النفس أسطورة بحد ذاتها .

وهل يجوز لى بعد ذلك القول أن الأستاذ محمود لا يغير عادته ، فهو يستيقظ مبكرا، يتناول الإفطار وهو يقرأ الجرائد، ويخرج لصلاة الجمعة، ويذهب يوم الإثنين إلى المجمع، ولا يخرج بعدهما إلا للضرورة القصوى كالتهنئة والتعزية وعندما ألم به ألم الظهر نصحه أطباؤه بالسير الطويل.. ففعل ولكن بعد ذلك استبدله بالدراجة الطبية. وهو يتناول طعام الغداء فى الثانية والنصف.. ولا ينام بعد الظهر إلا إذا كان متعبا.. وهو يتابع بشغف مباريات كرة القدم عندما تذاع عبر شاشة التليفزيون، ويهلل إذا أعجبه اللعب، ويتحسر عندما يكون سيئا يتذكر لعب زمان، كما يتابع أيضا المسلسلات العربية والأجنبية إن أعجبته.. وينادى أم فهر كى لايفوتها مشهد، وهذا كله لايثير الابتسام لدى عارفيه والتعجب لدى غير عارفيه الذين يتصورون أنه رجل جهم نذر كل حياته للدرس، ولو شاهدته وهو يتابع برنامج «عالم الحيوان» بعد عودته من صلاة الجمعة لأدهشك حب هذا الرجل للكائنات - مثلى - وهو من لفت انتباهى إلى هذا البرنامج الرائع.

والأستاذ محمود لايسهر بعد الثانية عشرة، حتى فى أيام شهر رمضان ولكنه سهر إلى مابعد الواحدة - فى أخريات حياته - عندما شاهد مسرحية «الزعيم» لعادل إمام.. وهو كان من المغرمين جدا بهذا الفنان ومعظم أعماله التى يذيعها التليفزيون!

وهو قوة نفس وقوة بدن، ولاشك أن حفظه للقرآن الكريم وعلومه قد

حفظه فى حياته.. فهو الآن فى الخامسة والثمانين من عمره المديد.. يصلى بنا قائما راكعا مطيلا.. وهو فى تناوله - حتى - للأدوية مقبل نشيط متذكر لمواعيدها، وقد لاحظتم كيف هى صراحته وصرامته وحدته.. فهو لايحب الرياء ولا الاغتياب مع الحضور القوى والبشاشة عند الاستقبال.

ومن أبرز خصاله أيضا عدم حرصه على المال، وليس الاشتغال به من شهوات نفسه وهموم فكره، فقد رأينا أنه لم يكن يتقاضى مردودا لمقالاته. بل إن دار الهلال طبعت «الطريق إلى ثقافتنا» ثلاث مرات، ورفض أجرها، لأنها كانت مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «المتنبى»، وعندما صار له منزل صغير رفض أخذ مقدم إيجار أو خلو رجل.. بل أن يتسلم إيجارا أقل من العقد، بل لايطلبه إذا لم يكن الساكن قد استقر به.. أو أن أمواله ضاعت فى خلاف سياسى مع الدولة، ولأن صمته عن المناقشة فى المجمع اللغوى «كما قال لى عضوه المحامى الشهير المغفور له أحمد مرعى»، بعد أن ضم المجمع من لايعرف العربية. صار يصف بعض الكلمات بالصعوبة التى يجب تذليلها، مع أنها كلمات وردت فى القرآن الكريم الذى يتردد على العامة صباح مساء ويفهمونها، فإن محمود شاكر لم يصرف الشيكات التى تصله من المجمع، وعندما شاهدها تلاميذته نصحوه بصرفها لأن للشيك تاريخ صرف.

وإذا ظن أحدهم أن محمود شاكر قد أثرى من مردود جائزة الملك فيصل العالمية.. فليعلم أنها لم تدخل فى ذمته المالية.. كل الذى حدث

بعدها أن صديقه محمود المدنى.. صاحب دار المدنى للطباعة كان يشكو له.. من قدم المطبعة. وأن إصلاحها يستحوذ بالكامل على كل مردودها.. فما كان منه إلا أن أعطاه قيمة الجائزة ليجدد بها مطبعته.. وحتى يحقق لنفسه هو - محمود شاكر - أن يطبع وفق مايختاره من كتب على هواه.

وهذه الزاوية فى شخصية محمود شاكر هى التى ألمحت إلى أنه يشترك فيها مع الأستاذ نجيب محفوظ.. حيث يرضى بأقل أجر.. وكلاهما لايحب الفخفخة ولا المباهاة، وإن كان نجيب محفوظ يمتثل لأجهزة الإعلام لتفتيشه.

هل نال محمود شاكر حظه من التكريم ؟

ونأتى إلى ختام الكتاب فنتساء ل .. هل كرمت الأمة العربية والإسلامية محمود محمد شاكر كما ينبغى له التكريم «؟» .

- بداية نجيب بنعم ، وربما استشهدت أيضا بما جاء فى مقال محمود شاكر منجم الأصالة العربية «الذى نشرته مجلة الهلال القاهرية» بعددها التذكارى «عمالقة وأحداث ١٩٨٩» .

واستهلته بـ : «شهدت حقبة الثمانينات من هذا القرن اعترافا متتابع الخطوط بمكانة «الأديب العربى الكبير محمود محمد شاكر» .

- انتخب عضوا مراسلا فى مجمع اللغة بدمشق عام ١٩٨٠

- حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر عام ١٩٨٢م ثم جائزة الجدارة أيضا عن كل جهوده فى نفس العام .

- أخيرا عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية فى مصر ١٩٨٣ تتويجا لحياة طويلة أمضاها فى البحث والدراسة والتنقيب .

- حاز على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى عام ١٩٨٤ عن كتاب «المتنبى» وفى عام ١٩٨٩ منح وسام العلوم والفنون من الطبقة

الأولى عن أعماله التى خدمت القرآن الكريم والسنة الشريفة سلمه له الرئيس حسنى مبارك فى احتفال وزارة الأوقاف بمناسبة المولد النبوى الشريف . وقد أهداه تلامذته على ساحة الأمة العربية والإسلامية ، كتاب «دراسات عربية وإسلامية» بمناسبة عيد ميلاده السبعين حيث قدم له الدكتور رشاد سالم من «مصر» ثم أهديت له الأبحاث مع الكلمات عن شخصه الكريم .. عن الدكتور إحسان عباس «فلسطين» الدكتور إحسان النص من «سوريا» ، القاضى إسماعيل بن على الأكوع «اليمن»، الدكتور حمد عبيد الكبيسى «العراق» ، الدكتور عبدالسلام الهراس من «المغرب» ، الدكتور عبدالله الطيب من «السودان» ، الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان من «السعودية» ، الدكتور محمد حسن عواد من «الأردن» ، الدكتور محمد يوسف نجم من «فلسطين» ، ثم عدد كبير من علماء مصر بينهم الدكاترة أحمد مختار عمر ، أيمن فؤاد سيد ، حسين نصار ، رمضان عبدالتواب ، عادل سليمان ، عبداللطيف عبدالحليم ، محمد عبدالخالق عضيمة ، محمد مصطفى هداره ، محمود الربيعى ، محمود على مكى ، محمود محمد الطناحى والأساتذة أحمد فؤاد سيد ، رجب إبراهيم الشحات ، السيد إبراهيم محمد ، أحمد حمدى إمام ، عبدالرحمن شاكر ، والشاعر شوقى على هيكل .

وقد تسترسل وتتذكر أن الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى ، حصل بدراسته عن «شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر» بين الدرس الأدبى والتحقيق «على رسالة الماجستير من كلية دار

العلوم ، وفى الطريق - كما قال الدكتور محمود الربيعى - رسالتا «دكتوراه» أولاهما عن طريقة التنقيط فى كتب محمود شاكر والأخرى عن طريقته فى فهرسته لكتبه .

وانهالت عليه الدعوات للمؤتمرات فى المغرب حيث الدروس الرمضانية التى يعقدها الملك محمد الخامس ، وتركيا ، والسعودية ، والكويت ، ولندن حيث أنشأ الدكتور زكى اليمانى مؤسسة الفرقان للإهتمام بمخطوطات التراث ... وغيرها وغيرها من البلاد العربية .

لكن هل اعتبر محمود شاكر هذا كله تكريما له ؟ لمعرفة ذلك نتوقف على سلوكه حيالها بعد أن عرفنا سلوكه نحو المجتمع ، فكان لزاما على أصدقائه وتلاميذه ومريديه اقناعه بضرورة قبوله لجوائز الدولة .

وعندما ذهب لإستلام جائزة الدولة التقديرية من مصر ، وكان الذى يسلمها رئيس الوزراء فؤاد محيى الدين ، وما أن نودى على اسم محمود شاكر إلا وصعد لاستلامها ، فاندهش فؤاد محيى الدين وراح يصافحه ويشد على يده «شاكر جدا لحضورك .. شاكر جدا لحضورك» لأن القائمين على الحفل ربما قد أوحوا له أن الأستاذ محمود شاكر لن يحضر لأنه رجل عازف عن الحياة العامة وعندما حمل إليه الدكتور حسين نصار جائزة الجدارة حيث تسلمها عنه - فقد أعادها

إلى الدولة مع الدكتور حسين نصار .. الذى أُرهق فى إقناعه باستلامها لأنها خرجت من خزينة الدولة واعادتها لها ، غير معروفة الإجراءات .. أما جائزة الملك فيصل فقد شهدنا كيف حاول رفضها فى البداية لولا رده تلامذته لأن موقفه يضر بهم .. وعندما اتصل به الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف ليعلمه بيوم تَسلم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى اعتذر له بشدة عن الحضور أو الحصول عليها من الأصل . فما كان من الدكتور محجوب إلا أن اتصل بالدكتور عبدالله محارب المستشار الثقافى لدولة الكويت ليقنعه بالذهاب ونجح فى ذلك .

ويحكى الذين حضروا معه بعض المؤتمرات التى لباها قصصا كثيرة من رفضه مثلا ركوب عربة كبيرة «باص» تقل العلماء من الفندق إلى المؤتمر .. واشترط أن يكون لكل عالم عربة خاصة .. بل أنه عندما جاء دوره فى مصافحة ملك المغرب حيث يكنى بأمير المؤمنين .. يجب الإنحناء لمصافحته وتقبيل يده صافحه محمود شاكر وهو مرفوع القامة . - حقا ما قيل إن التكريم يتراءى للناس شيئا محبوبا ، وحقا إن الذى لا يأبه للتكريم هو الذى يستحقه .. لأن لا يستوجب الدول ولا الناس الذين لا يعملون بنهجه .

إن محمود شاكر لم يكن شغوفا ولا آبها ، لأن يضع وساما على صدره .. أو وشاحا على كتفه .. أو أموال توضع له كرصيد فى بنك ..

ولا لقبا «كشيخ العربية» يطلق عليه .. وإنما هو محتاج أن تتخذ كتاباته مكانها فى عقول المثقفين من أبناء الأمة العربية والإسلامية .. أن يحيا نهجه الذى نادى به فى قلب مسئول يعمل على تنفيذه .. أن يقرر منهجه فى الجامعة كما نادى الدكتور شكرى محمد عياد .. أن تختار إحدى صفحات كتبه للمطالعة والإملاء فى مدارسنا الإبتدائية والثانوية ..

لقد جاء هذا التكريم متأخرا جدا عما كان ينبغى – وكأنهم [1] ألقوا له بطوق النجاه ، بعد أن وصل إلى الشاطئ – لقد [2] كرموه أخيرا لأنهم لم يجدوا أحدا ممن هم دونه يمكن أن يغالط به ويصلح لتوجه إليه التقديرات التى وجهت له أخيرا .. فان هذه التقديرات قد نالها قبل الآن من لا يقارنون به من بعيد أو قريب فى فضله وخدمته لثقافتنا العربية قديما وحديثا .

وإذا قال أحدهم أن هذا التقدير المتأخر يعود بالدرجة الأولى إلى اعتزاله الكتابة للصحف وعزوفه عن الظهور فى أجهزة الإعلام جميعا .. بحجة أن هذه الأخيرة ترسل للتسلية وليس للتثقيف .. فهناك كتبه التى لم ينقطع هديرها كما قرأنا فى سرد حياته .. وعلى ذلك نقول [3] إن

---

(١) هذه كلمة قالها الأديب الانجليزي برناردو شو عندما رفض جائزة نوبل .

(٢) هذا تفسير قاله لي الأستاذ خليفه التونسي أحد قلائل منصفي العربية «رحمه الله» .

(٣) هذا قول الأستاذ محمد علي ماهر «رحمه الله» .

محمود شاكر لم يكن منزويا بقدر ما كان المنزوى هو قدرة الجو الثقافى العربى عن الحقيقة الكبرى التى يمثلها هذا الكنز البشرى أو الفكرى العربى الكبير . إن هذا التكريم المتأخر ليس اكتشافا لمحمود شاكر بقدر ما هو اكتشاف لأنفسنا ولقيام المؤسسات الفكرية واللغوية بدورها الحقيقى ، الذى كان يجب أن تنهض به منذ مطلع شباب محمود شاكر .

ويتساءل المولع بشاكر : إذا كان هذا التقدير المتأخر كان بسبب سطوة تلاميذ طه حسين فيا لهول وجبروت طه حسين .. وإذا كان نتيجة وصول تلامذته فى مصر وغير مصر إلى النفوذ الثقافى .. فيالبطء وصولهم .. وإذا كان بسبب اعتزاله لأجهزة الإعلام فيالسطوة هذه الأجهزة .

ولقد كنت أداعبه دوما بأنى كنت الفأل السعيد عليه ، وإن كتاباتى المستمرة عنه عرفته للعامة بعد الخاصة .. أقول له : «قبل أن أكتب عنك ، لم يكن يعرفك أحد لدرجة أننى كنت عندما أقول لأصدقائى إننى ذاهبة إلى الأستاذ محمود شاكر يسألونى هل هو ممثل ؟ ذكرينا بأدواره ؟ ، فى أى تمثيلية أو فيلم ظهر ؟ بل إنه يوم ظهور أول مقال لى عنك بمجلة الإذاعة انهالت المكالمات على رئيس ومدير التحرير سعيد عثمان ومحمود سالم . فقالوا لى ماذا حدث بالكون اليوم ، إننا ننشر منذ عشرات السنين ولم يحدث لنا هذا ، والحق أن مكالمة

بالذات قد أغاظتهم وكانت من المذيع اللامع أحمد فراج .. إذ قال لسعيد لو أنك لم تفعل شيئا رائعا فى حياتك فقد حققته اليوم بنشرك عن محمود شاكر .

ولن أنسى يوم ذكر الشيخ على الطنطاوى اسمه فى تليفزيون الكويت .. حين حكى عن ذكرياته في مصر . حيث تعرف على الشيخ أحمد محمد شاكر ، الذى كان محدث الجيل بلا منازع ، وأخيه محمود محمد شاكر الذى ليس فى بابته نظير فى الأدب .

بعدها تلقيت المكالمات بل الرسائل يبلغنى أصحابها من الأصدقاء .. أنه استمع للشيخ طنطاوى وأنه يوافقنى الآن على الاستمرار فى الكتابة عن محمود شاكر ، أما الأصدقاء الذين عادوا من السعودية .. فقد زفوا لى أنهم تعرفوا على محمود شاكر الذى أكتب عنه ولا يكادون يعرفونه من قبل ، لمجرد أنه أثار بكلماته الساخرة ضحكات العاهل السعودى الملك خالد بن عبدالعزيز خلال لقائه به فى الرياض .

وقد شاهدت صديقا فى معرض الكتاب بالكويت ينوء بحمل كتب كثيرة .. وصافحنى وهو يقول : لقد اشتريت كل كتب محمود شاكر الذى تكتبين عنه دوما .. وعندما نظرت فيما يحمله وجدته عن آخره كتب تاريخية .. فقلت للصديق أنها ليست لأستاذى وإنما لمؤرخ سورى له كنيته (حرستى) فحذفها ليوهم الناس أنه محمود محمد شاكر

«أبو فهر» فحزن حزنا شديدا .. بل إن رؤساء تحرير الصحف الكويتية عندما تبينوا الحقيقة صاروا يطالبوننى بالكتابة عنه ، بعد أن كان مطلبهم في السابق أن أكتب عن الأستاذ نجيب محفوظ .

كنت أقول له ذلك مشاكسة .. لأنى أعرف أنه استحق هذه الجوائز عن جدارة ، وعن تراكم أعمال التهمت زهرة شبابه ، كنت أقول له ذلك وأنا أعرف أنه ليس للحظ مكان فى حياته .. فكل ما ناله من تقدير واحترام وشهرة كان نتيجة عمل دائب وكدح مستمر ، ورغم أن محمود شاكر لم يجد الصدى المتوجب لأعماله وأقواله من الشعب العربى المسلم ، الذى يكتب له وعنه .. فإنه لا يسخط ، بل لا يستسيغ من يطلق عليه أوصاف «كالشعوب المتخلفة» أو «العالم الثالث» ، أو «الدول النامية» أو النائمة ، التى تغط فى نوم عميق ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على وقعها أو إحراقها . لمعرفته أن ما يمر بالعالم العربى والإسلامى ما هو إلا مرحلة استثنائية - نتجت من أن الغرب المسيحى لم ينس أبدا احتلال العثمانيين لقلب أوربا (تركيا) ، وتحويلهم كنيسة أياصوفيا إلى مسجد ، مما آثار فزع أوربا من جيوش الإسلام التى كانت تهدد فرنسا ذاتها .

ولكن عجلة التاريخ لن تتراجع إلى الخلف مرة أخرى - والذى حدث مرة سيعود ويتكرر .. فطبيعة الإسلام نفسه ، وجوهره وماضيه

وكفاحه الطـويل والتحـديات الكثيـرة التى قابلها وصمد لها وتغلب عليها تقول ذلك .

واختتم كلامى بكلمة صدق جرت على لسان الدكتور عبداللطيف عبدالحليم وهو من تلامذة العقاد «كلام محمود شاكر يعلم الزهو والمجد أولا ويعلم الأدب والفكر ثانيا» ..

★★★

النهـاية

عجلت باللمسات الأخيرة لهذا الكتاب بينما أستاذى محمود شاكر نزيل غرفة الإنعاش بمستشفى النزهة الدولى حتى انتهيت من مهمتى بحمد الله فجر الأول من أبريل عـام ١٩٩٧ ، وكلى أمل أن أتمكن من إصدار الكتـاب فى أقرب فرصة ، وإهدائه إلى السيدة الفاضلة «أم فهر» .. الزوجة الراضية الصبور التى تفهمته وغمرته بالحب ، ووفرت له أسباب الرعاية والإبداع ، وانجبت له ولنا خير خلف لخير سلف ، ووسع كرمها ومودتها أصدقاءه ومريديه وقاصديه من طلاب العلم .

«المؤلفة»